

PEACEFUL

رؤية من الداخل:

معالجة قضايا العنف الأسري

تحرير:

مها الخطيب وسالمه القاضي أبو جديري

FAMILIES

PROJECT

مقتطفات مترجمة من النص الأصلي الإنجليزي من كتاب:

Change from Within: Diverse Perspectives on Domestic Violence in Muslim Communities

تحرير: مها الخطيب وسالمه القاضي أبو جديري
ومصعب حياتلي

مشروع الاستقرار الأسري

(Peaceful Families Project)

<http://www.peacefulfamilies.org/>

يشكر مشروع الاستقرار الأسري كلا من

ليالي اشقيدف ومجد محسن

على مساهمتهما في الترجمة والمراجعة

حقوق الطبع والنشر محفوظة ٢٠١١

Peaceful Families Project, Great Falls, VA

المحتويات

٢	تمهيد
٩	النموذج القرآني للأسرة الدكتورة زينب علواني
٢٧	العنف الأسري في السودان: الكشف عن المستور البروفسور عوض محمد أحمد
٣٩	كيف يساهم الإمام في التغيير مقابلة مع الإمام محمد ماجد
٤٨	المراجع

تمهيد

اشتكت امرأة لإمام الحي أن زوجها يسيء معاملتها ويضربها. فاتصل الإمام برئيس الجودية لترتيب موعد للزوجين لطرح الشكوى بعد أن أدت بهما مشاكلهما إلى اللجوء لمحكمة الأحوال الشخصية حيث اشتكت الزوجة بعد عدة حوادث تعرّضت فيها للضرب وأرادت الانفصال عنه. لكنها وجدت صعوبة في تدبير أمورها وحدها كأم لثلاثة أطفال صغار ورابع على الطريق، فخلال أسبوعين، أذعنت لطلبات زوجها وسمحت له بالعودة للمنزل ولهذا لجأت إلى طلب المساعدة من الإمام.

أصرّ الإمام على أن يلتزم الزوجان بحضور جلسات الإرشاد التي فرضتها عليهما المحكمة. ورغم أن الزوج كان ضد الفكرة في البداية إلا أن الإمام ضغط عليه، ورثب لهما موعد جلسة الإرشاد الأولى، بل وحضرها بنفسه. وفي النهاية أقنع الزوج بالالتزام بحضور جلسات الإرشاد ووعد بمتابعته للتأكد من وفائه بالتزامه.

تبيّن خلال جلسات الإرشاد أن الزوج يعتقد أن زوجته أقل كفاءة وذكاءً منه، مما هيأ له أن لديه الحق بـ"تأديبها" بطريقة يمكنها أن "تفهمها"، ويررّ سلوكه التسلطي و غضبه بما تصوره أسباباً كـ "عدم طاعتها" و "عدم تنظيمها". فقد اشتكى أن منزلها دائماً يحتاج للترتيب وأنها دائماً متعبة. ورغم أن الزوجة كانت تعمل خارج المنزل نفس ساعات عمله، إلا أنه كان يتوقع منها العودة للبيت لتتولى مسؤولية أطفالها الثلاثة، وجميعهم دون سن الخامسة إضافة إلى تدبير شؤون وأعمال البيت لوحدها. ورغم أنه أراد أن تعمل زوجته خارج المنزل للمساعدة في المصاريف، إلا أنه لم يعتقد أن عليه المشاركة في الأعمال المنزلية.

أما جلسات الإرشاد مع الزوجة فأظهرت أنها كانت تعاني من الإكتئاب لعدة أشهر، كما ذكرت أنها تخاف من زوجها وأنه قاس للغاية مع الأطفال. كما أن الزوجة نفسها نشأت في أسرة عنيفة، حيث تعرّضت فيها للمعاملة القاسية الجسدية منها والعاطفية من قبل أقاربها لسنوات عديدة. ومن جهة أخرى، بما أنه لم يسكن أي من أفراد أسرتها بالقرب منها، فقد كانت تعتمد على أسرة زوجها للحصول على الدعم المعنوي. لكن أسرته كانت تحثها على أن تصبر وتسامح زوجها على ضربه لها وأن تتابع الحياة الأسرية "الطبيعية" من أجل أطفالها. كما ذكرت الزوجة أنها عندما حصلت على الأمر التقديدي كانت تنوي الطلاق، لكنها الآن محتارة ولا تعرف ما هو الأفضل لأطفالها.

عندما أكمل الزوج جلسات الإرشاد التي فرضها أمر المحكمة، بدأ بحضور جلسات إرشاد الأزواج، لكنه توقف عنها بعد بضع جلسات. حاول الإمام جعله يحضر دروساً دينية و جلسات دعم جماعية للرجال لمساعدته على التغيير، لكنه رفض المشاركة. فبعد أن لبت المتطلبات القانونية، رفض أية خدمات أخرى وحاول إثناء زوجته عن الاستمرار في جلسات العلاجية واعدأ إياها أن حياتهما ستكون أفضل وأصر على أنها ليسا بحاجة لمساعدة من أحد.

هذه الحادثة القصيرة المبنية على أحداث حقيقية مع تغييرات في بعض التفاصيل لحماية هوية أشخاصها، تعكس قضايا مهمة يواجهها المسلمون الذين يعانون من العنف الأسري في مجتمعاتنا. فالعنف الأسري هو ظاهرة عالمية تهدد الكثير من الأسر وتطال كل من الذكور والإناث على حد سواء، وبغض النظر عن الدين أو العرق أو الأصل الإثني أو المستوى التعليمي أو الطبقة الاجتماعية. وباعتباره أحد الأشكال العديدة للعنف ضد المرأة، يمثل العنف الأسري نمطاً سلوكياً بين أفراد تربطهم علاقات حميمة أو أسرية، يحاول من خلاله أحد الأفراد السيطرة على آخر باللجوء إلى أنواع مختلفة من العنف، منها العاطفي والنفسي واللفظي والبدني والجنسي والاقتصادي والوجداني.

وفي الأسر التي يقع فيها العنف تعيش الضحايا في جو من الخوف والذل. ويتخذ التعريف التقليدي للعنف الأسري بين شريكين حميمين هنا معنى أوسع يشمل نطاقاً من العنف الذي يقع داخل الأسر، مثل العنف تجاه الزوج أو الزوجة، والإساءة لأهل الزوج أو الزوجة، والإساءة لكبار السن، والإساءة للطفل، وسفاح القربى. ومع أن ضحايا

العنف الأسري يمكن أن يكونوا إنثاءً أو ذكوراً، إلا أنه وبحسب "صندوق منع العنف الأسري"^١ فإن معظمهم من الإناث. فعلى الصعيد الدولي، تتعرض واحدة من بين كل ثلاث نساء للعنف الأسري خلال حياتها^٢. وفي مسح بياني حول العنف الأسري شمل ١٥ موقعاً في ١٠ دول، أجرته منظمة الصحة العالمية ونُشر في عام ٢٠٠٥، تبين أن معظم النساء يتعرضن للعنف البدني أو العنف الجنسي أو كليهما على يد شريك حميم خلال حياتهن.^٣

مع قلة الموارد المتاحة حول العنف الأسري في الأسر المسلمة، نأمل أن تساعد هذه النسخة المنقحة من الكتاب والتي تصدر في الوقت المناسب، في تسليط الضوء على قضايا العنف الأسري في الأسر المسلمة، وإيضاح موقف الإسلام الرافض للعنف. يتضمن الكتاب مجموعة من منهجيات مجابهة العنف الأسري في المجتمعات المسلمة، بالإضافة إلى منظور الناجين من العنف الأسري والمناصرين والنشطاء، بالإضافة إلى المنظور الاجتماعي والطبي والعائدي والقانوني. وفي تصورنا أن الكتاب سيساعد في إزالة الصور النمطية حول الإسلام والادعاءات بأن المسلمين يقبلون بالعنف الأسري، كما أنه سيساعد المنصرين ومقدمي الخدمات المسلمين وغير المسلمين على معرفة العوامل المرتبطة بالعنف الأسري في الأسر المسلمة ليتمكنوا من مساعدة المسلمين بشكل أفضل.

مقدمة: الإسلام ضد العنف الأسري

ضمن سياق الإسلام، يقدم القرآن والسنة النبوية نموذجاً للأنظمة الأسرية الصحية وتعاليم واضحة حول العدالة والمساواة بين الجنسين والاحترام المتبادل في العلاقات الزوجية والتكاملية في الأدوار والوحدات الأسرية المبنية على الحب والمودة والرحمة، فتعاليم الدين الإسلامي، مدعومة بأمثلة مختلفة من القرآن والسنة، تعزز بوضوح العلاقات العادلة والمتناغمة بين أفراد الأسرة، وتعتبر أي انتهاك لها تمادياً أخلاقياً خطيراً، ومن يرتكب تلك الانتهاكات يعتبر ناقصاً في إيمانه وفي فهمه للإسلام. لكن نتيجة للتفسيرات المختلفة لتعاليم الإسلام ضمن السياقات التاريخية والثقافية المختلفة، تعزز بعض الممارسات الثقافية في المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة فكرة علو مكانة الرجال على النساء بشكل غير محدود، وهو ما تبين أنه من العوامل التي تساهم في العنف ضد المرأة. لذلك تركز المداخلات المتعلقة بالحد من العنف الأسري في المجتمعات المسلمة على تثقيف المسلمين حول تعاليم الإسلام التي تحرّم جميع أشكال العنف في الأسرة.

ما تزال مناقشة العنف الأسري حتى الآن من المحظورات في الأسر والمجتمعات المسلمة^٤، حتى أن تعبير "العنف الأسري" نفسه يشكل في بعض الأحيان عائقاً أمام التقدم في هذا النقاش، وذلك للاعتقاد بأنه مصطلح "غربي" لا صلة له بالمسلمين ولا ينطبق عليهم. فالكثير من المسلمين يربطون بينه وبين الحركة النسوية "الغربية"، ويعتقدون أنه ينطوي على قيم لا تتماشى مع الإسلام. لكن من الممكن أيضاً أن يكون المصطلح غير شائع كونه لا يستخدم تقليدياً في الأدب الإسلامي. لكن القرآن والسنة على حد سواء تصدياً لمفاهيم العنف والإساءة الأسرية ضمن السياقات الأوسع للضرر للاضطهاد والقسوة والظلم، ويحظران بوضوح أي سلوك يشمل على أشكال العنف هذه.

نأمل أن يساعد هذا الكتيب في سد فجوات التواصل التي قد تتواجد في مجتمعنا الديني من أجل تحفيز الحوارات اللازمة لمساعدة المسلمين على التمسك بقيم العلاقات المتكافئة والسلمية داخل الأسرة والمجتمع.

ورغم التوسع شيئاً فشيئاً في النقاشات التي تركز على العنف الجسدي واللفظي إلا أن مناقشة العنف الجنسي أصعب. على سبيل المثال، يعتبر معظم المسلمين أن "الاغتصاب الزوجي" هو تناقض في المصطلحات. فتاريخياً وقانونياً في معظم بلدان العالم، لا تستعمل كلمة "اغْتصاب" إلا للإشارة للأفعال الجنسية القسرية من شخص غير الزوج. لكن القرآن يبين أن الزواج المبني على أسس الإسلام هو علاقة قائمة على الحب والعطف المتبادلين "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقُرُونَ" (آية ٢١ من سورة الروم)، يصف فيها الأزواج بأنهم "لباس" لبعضهم البعض في قوله تعالى: "في قوله تعالى (هن لباس لكم وأنتم لباس

لهن)،" سورة البقرة، آية ١٨٧. وفي هذه العلاقة المتساوية، يتكيف كل من الزوج والزوجة مع احتياجات الآخر، ويتم حصّتهم أحياناً على تغليب احتياجات الآخر.

وهكذا، فإنه في الوضع المثالي في الزواج الإسلامي، يراعي الأزواج والزوجات الراغبون بممارسة العلاقة الحميمة بعضهما البعض، ويتفهمون عندما لا يكون لدى أحدهم رغبة بها. وبالمثل، فإنه من دافع الحب لبعضهما البعض، قد يختار الأزواج أحياناً ممارسة العلاقة الحميمة حتى إن لم يكون يرغبون بها في ذلك الوقت. ففي الزواج الإسلامي الصحي، يجب تحقيق التوازن بين شخصيات واحتياجات كلا الزوجين، والأخذ بعين الاعتبار العوامل والضغوطات الخارجية. وبالمقابل، فإن التلاعب اللفظي والعاطفي والبدني والوجداني سلوك غير إسلامي، واستخدام أي طرف أي شكل من أشكال القوة غير مقبول على الإطلاق. وفي حال أصر أحد الزوجين على ممارسة العلاقة الجنسية بطريقة تنافي الأمر الإسلامي بـ"المودة" و"الرحمة"، يكون ذلك الشخص قد خالف الأوامر الإلهية، مما يعرضه للمحاكمة في هذه الحياة، والمساءلة في اليوم الآخر.

عند محاولة التطرق لظاهرة العنف الأسري وعلاجها، تنكر الكثير من المجتمعات المسلمة وقوعه أصلاً في البيوت المسلمة، وتظهر عدم الرغبة في "نشر الغسيل القذر" للمجتمع في سياق دولي يميّز ضد المسلمين ويروج صوراً نمطية سلبية عنهم بينما قد يتردد البعض في التصدي للمشاكل الاجتماعية الداخلية خوفاً من صب المزيد من الزيت على النار^٦. ومن جهة أخرى نود التأكيد على إدراك المسلمين يدركون أن مقدمي الخدمات غير المسلمين على علم بانتشار العنف الأسري في الأسر المسلمة، فالمسلمون يحصلون على الخدمات من المنظمات والملاجئ العامة بسبب نقص الخدمات الاجتماعية المناسبة ضمن المجتمعات المسلمة. لذلك، إن أردنا - كأفراد في الأسر والمجتمعات المسلمة - أن نساعد أنفسنا، فإن علينا أن نتعامل مع قضية العنف الأسري.

إن العنف الأسري حقيقة واقعة في جميع المجتمعات من جميع الأديان والثقافات والأعراق. ونحن نأمل أن يساعد هذا الكتاب الكثير من الأسر والمجتمعات المسلمة التي لم تدرك بعد هذه الحقيقة على مواجهة قضية العنف، ونتطلع لأن يستخدم القصص والأدوات التعليمية التي يقدمها الكتاب لتعزيز فهمهم للعنف الأسري في المجتمعات المسلمة وتوفير الدعم والخدمات الملائمة للأفراد والأسر المتضررة. فمن الأوامر التي ينص عليها القرآن للمسلمين: "كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ..."، و"مَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ..."، وإن أخطأ أحدهم بحق آخر، "فَقَاتِلُوا الَّذِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ" (الآية ١٣٥ من سورة النساء، الآية ٧٥ من سورة النساء، الآية ٩ من سورة الحجرات).

يذكر القرآن العلاقات الأسرية (ومن بينها الزواج والطلاق والتربية) بتفصيل أكبر من أي موضوع آخر يتناوله، مما يشدّد على أهمية السلوك والتفاعل السليمين كجوانب أساسية في ممارسة الشعائر الإسلامية. كما أن التشديد القرآني على الأسر والقوانين المنظمة للعلاقات الصحية هي بمثابة أوامر للأسر والمجتمعات المسلمة بإنشاء أسر مستقرة. على الرغم من أن معظم الآيات القرآنية التي تتناول شؤون وقوانين الأسرة واضحة للغاية، إلا أن هناك آيات معينة خضعت لتفسيرات متعددة.

بعض هذه الآيات، تحديداً الآية ٣٤ من سورة النساء، تشكل مثار جدل كبير، وكثيراً ما يتم إساءة استخدامها من قبل البعض لتبرير إساءتهم البدنية لزوجاتهم. لذلك، هناك حاجة ماسّة لأن يقوم الفقهاء والعلماء المسلمون بإعادة النظر في تفسيرها وتقديم تفسير عصري لها. فانسجاماً مع تركيز الإسلام على حقوق المرأة، كانت هذه الآية سابقة لعهدنا عندما نزلت قبل أكثر من ١٤٠٠ عام. ففي الجزيرة العربية قبل الإسلام - وتحديداً في مكة - كان العنف ضد المرأة شائعاً ومقبولاً اجتماعياً، فساهم نزول هذه الآية في ضبط ذلك العنف، حيث أنها تشجع على حل النزاعات من خلال التواصل لا العنف، وكانت هذه فكرة غير مألوفة بالنسبة للكثير من الرجال في ذلك الزمن. ففي حالات الخلافات الزوجية، أمرت الآية الرجال بالامتناع عن جعل ضرب زوجاتهم أمراً معتاداً، واستبداله بالدخول في عملية متعددة الخطوات للتواصل تتضمن استراتيجيات لحل النزاع والوساطة من أشخاص لهم سلطة على الزوجين.

لكن ما يحدث في الوقت الحالي يثبت أن التفسيرات الأولية - بعضها عمره أكثر من ألف عام - تفشل في احترام جوهر المساواة في الإسلام نحو المرأة. لقد عبر نبينا الأعظم صلى الله عليه وسلم عن بغضه لممارسة العنف ضد المرأة، وموقفه ضد إساءة معاملة الزوج أو الزوجة يتوافق كلياً مع النموذج القرآني الذي يعزز العلاقات الأسرية السلمية. لكن منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، سمحت الكثير من تفسيرات العلماء لهذه الآية بضرب الزوجات ضمن شروط محددة وفي ظل تقييدات معينة. لكن تفسير الآية بما يسمح بأي شكل من أشكال العنف يتنافى مع الصورة القرآنية الكلية، والنموذج الحي الذي قدّمه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد حان الوقت لأن يعيد العلماء المسلمون إحياء روح الاجتهاد (والذي شجّع عليه الرسول بنفسه) لتطوير تفسيرات أوضح للقرآن والسنة، وقطع الطريق أمام المعتدين الذين يستغلون الإسلام لتبرير العنف الأسري. كما أن على المحامين وفقهاء القانون المسلمين إيجاد نماذج قابلة للتطبيق توازن بين القوانين الإسلامية والأمريكية، خاصة فيما يتعلق بالزواج والطلاق.¹

دور الدين والثقافة

تشمل معتقدات المسلمين وممارساتهم أبعاداً ثقافية ودينية متنوعة، حتى ضمن المجموعة العرقية أو الإثنية نفسها. كما أن مستوى التعليم والوضع الاجتماعي الاقتصادي، بالإضافة إلى عوامل أخرى، يخلقان تعددية ضمن المسلمين أنفسهم.

كما هو الحال في المجتمعات الدينية الأخرى، فإن التفسيرات الثقافية والدينية تصوغ فهم المسلمين للعنف الأسري واستجاباتهم له². فأمور مثل الأفكار الثقافية حول الأدوار القائمة على النوع الاجتماعي والكبرياء والمساواة وبنية السلطة، يمكن أن يكون لها أثراً كبيراً على أشكال العلاقات الشخصية وتعريف العنف.

وبالنظر إلى النظام في إطاره الواسع، فإن الصلة بين الثقافة والدين، والوضع الاجتماعي الاقتصادي، والتاريخ السياسي، وتاريخ الاضطهاد الأبوي المرتبط بالممارسات الثقافية للعنف الأسري تحديداً يحتاج إلى المزيد من الدراسة من قبل المسلمين. ويشتمل هذا التاريخ في أيامنا هذه على ممارسات غير إسلامية للعنف ضد المرأة مثل جرائم الشرف والتشويه الجنسي للإناث والقتل المرتبط بالمهر والحرق بالحمض والإكراه على الدعارة والاتجار بالبشر والاستغلال في العمل في المنزل وواد البنات والتحرش الجنسي والاعتصاب والزواج القسري، بالإضافة إلى ممارسات مقبولة اجتماعياً مثل ضرب الزوجات. فثقافة القمع هذه تؤثر في منظور الأفراد للعنف وتعريفهم لها وطرقهم في حل المشاكل والتواصل وتعاملهم فيما بينهم. وعند أخذ هذه السياقات بعين الاعتبار يزداد التعقيد في محاولات فهم ظاهرة العنف الأسري لدى العديد من الأسر المسلمة.

ومما يزيد من هذا التعقيد إساءة استخدام النصوص الدينية والعادات الثقافية بما يشجع على العنف أو يسهّله. ووفقاً لمعهد الثقة بالإيمان (FaithTrust Institute) فإن بعض المسيحيين واليهود يسيئون استخدام الإنجيل والتوراة أيضاً لدعم ممارستهم للعنف. وبالمثل، فإن بعض الأفراد المعتدين الذين يعرفون أنفسهم بأنهم مسلمون يسيئون استخدام نصوص القرآن لتبرير سلوكهم الخاطيء³. في مثل هذه الحالات، يتخذ الأفراد المعتدون من فهمهم الخاطيء للقرآن وأحاديث النبي محمد عليه الصلاة والسلام سلاحاً ضد ضحاياهم، فيقتبسون آيات قرآنية خارج سياقها ويستندون إلى أحاديث ضعيفة الإسناد، وأحياناً يخططون بين الممارسات الثقافية والإسلام، فالدين في بعض العائلات أصبح متجذراً في التقاليد الثقافية، والحدود بين الثقافة والدين أصبحت ضبابية.

ولا تقتصر الإساءة الروحانية على الأسرة فحسب، بل نجد السلوكيات العدائية بين أفراد المجتمع الواحد. وقد يسيء بعض رجال الدين المسلمين وقادة المجتمع استخدام سلطاتهم. تجدر الإشارة إلى أن الإساءة الروحانية التي نتطرق

¹ حركة أطلقها باحثون في الولايات المتحدة من أجل تطوير فقه الأقليات المسلمة الذي "يأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين الأحكام الدينية وظروف المجتمع وموقعه". (Al-Alwani 2003, 3)

لها هنا هي الإساءة القائمة على النوع الاجتماعي، فهي تشدد على خضوع المرأة للرجل، وتحرف التعاليم الإسلامية لتعزز السلطة والتفوق الذكوري للرجال على النساء. عند نزول القرآن، ضمن الإسلام حقوقاً مهمة للنساء، بما فيها حرية الاعتقاد، والمساواة بين الرجال والنساء أمام الله، وحقوقاً قانونية ومالية، وحق التملك، والحق بالعمل، والحق بالطلاق، والحق بإشباع الرغبات الجنسية. لكن بعض المسلمين لا يعترفون بهذه الحقوق في كثير من ممارساتهم الفردية والأسرية والاجتماعية. كما أن بعض النساء يستبطن هذه الإساءة الروحانية، فيشعرن بأنهن مذنبات بحق الله إن هنّ عارضن العنف، ويخشين إدانة قادة مجتمعاتهن والمجتمع ككل لهن إن هنّ قررن الخروج من الأوضاع التي تعرضن لها.

مسلمون يتصدون للعنف الأسري

أثناء عملنا مع المجتمعات المسلمة والمناصرين في قضية العنف الأسري في مناطق مختلفة من الولايات المتحدة، لاحظنا الازدياد الكبير عالمياً في عدد النشطاء المسلمين الذين يعملون لمكافحة العنف الأسري في السنوات الأخيرة، وخاصة بين النساء. فقد نشأت الكثير من المنظمات الشعبية في الدول المسلمة وفي دول أخرى ذات أقلية مسلمة. من بين أهداف هذه المنظمات توفير خدمات مباشرة لضحايا العنف الأسري، وزيادة مستويات الوعي، ونشر المواد التثقيفية، وإجراء البحوث، وتوثيق الحالات، والمناداة بالإصلاحات الاجتماعية والقانونية والسياسية. ومن جهة أخرى، أصبح قادة المسلمين في الولايات المتحدة أكثر وعياً بانتشار العنف الأسري وآثاره، كما أن العديد من المجتمعات المسلمة تلعب دوراً فاعلاً في التصدي له.

ففي منطقة واشنطن العاصمة الكبرى على سبيل المثال، وضعت العديد من المساجد بيانات وقع عليها العديد من الأئمة في المناطق المحلية يعلنون فيها موقفهم الرافض لجميع أشكال العنف. وبحسب علمنا، فإن مسجداً واحداً على الأقل يضع منشورات حول العنف الأسري وموارد للضحايا في حمّام النساء لتتمكن النساء من الحصول على المعلومات بشكل يحافظ على الخصوصية ودون الخوف من انتقام الأشخاص المعتدين أو أفراد المجتمع. بالإضافة إلى ذلك، أنشأ العديد من الأئمة في المناطق المحلية علاقات تعاون مع القضاة في محاكم الأسرة وأخصائيي الصحة العقلية والمؤسسات التي تخدم ضحايا العنف الأسري. وفي جميع أنحاء الولايات المتحدة، نجد أن الكثير من قادة المسلمين ينضمون إلى فرق عمل مكافحة العنف الأسري، أو يشاركون في أنشطة الحوار بين الأديان، أو ينظمون ورش عمل لمجتمعاتهم لتثقيف الأسر حول العلاقات المستقرة. وفي خطب الجمعة، يتطرق الأئمة لمواضيع العنف الأسري والنوع الاجتماعي ومشكلة إخراج الآيات عن سياقها. وتعتبر هذه الجهود خطوات مهمة في الحد من العنف الأسري في المجتمعات المسلمة.

وتوفّر العديد من البرامج الإسلامية لمكافحة العنف الأسري عدداً من الخدمات مثل خدمات الترجمة، والمشورة القانونية والإحالة للخدمات القانونية، والتدخل في حالات الأزمات، والمساعدة المالية، والإرشاد الفردي والأسري، والإرشاد قبل الزواج، والمشورة من الأئمة، ومجموعات الدعم، والتوظيف والكثير منها يوفر برامج للدفاع والمناصرة يقوم من خلالها أفراد المجتمع المسلم وقادته بالتوعية حول العنف الأسري وتثقيف أنفسهم حول حقوقهم الإسلامية والقانونية. بالإضافة إلى ذلك، يقدم المناصرون المسلمون المتخصصون بقضايا العنف الأسري والخدمات الاجتماعية خبراتهم ودورات تدريبية للمنظمات الحكومية والشعبية لزيادة الوعي باحتياجات المسلمين، كما يقدمون مساعدات شاملة للأسر المتأثرة بالعنف الأسري. وفي بعض هذه المنظمات، يوجد نظام غير رسمي للإحالة المتبادلة بين الأئمة المحليين والباحثين الاجتماعيين. ومع أنها غير قادرة على تلبية جميع احتياجات الأسر المسلمة المتأثرة بالعنف الأسري، إلا أن الإحالة المتبادلة والتعاون يوفران نموذج عمل أولي يمكن الاستفادة منه لتوسيع نطاق الخدمات. وبرأينا، هناك عوامل بارزة في نجاح نظام الإحالة المتبادل هذا، منها: احترام المناصرين لأدوار بعضهم البعض، والإقرار بأن العنف الأسري مشكلة اجتماعية وأخلاقية جديّة لدى المسلمين، والرغبة في التعامل مع هذه المشكلة من المنظورين الروحاني والاجتماعي.

تأسست منظمتنا، مشروع الاستقرار الأسري "Peaceful Families Project"، في عام ٢٠٠٠ على يد شريفة الخطيب (١٩٤٦-٢٠٠٤). دافعت السيدة الخطيب بلا كلل عن الأفراد المتأثرين بالعنف الأسري، وقضت أربعين عاماً تدافع عن الحقوق المدنية والإنسانية وحقوق المرأة للمسلمين. كانت تعرف بشغفها للحياة والتغيير الإيجابي، وسعت للجمع بين قادة المسلمين وأفراد المجتمع ومقدمي الخدمات الاجتماعية في العديد من المدن في الولايات المتحدة ما بين أعوام ٢٠٠٠ و٢٠٠٤ من خلال عقد ورش عمل للتوعية بالعنف الأسري. وباعتبارها رائدة في جهود الدفاع والمناصرة لمكافحة العنف الأسري في المجتمعات المسلمة، ألهمت ورش العمل التي كانت تنظمها السيدة الخطيب المناصرين الناشئين، وأطلقت تحركات مجتمعية ناشطة ضد العنف، وحقّزت المجتمعات على تطوير برامجها الخاصة لمكافحة العنف الأسري. من خلال متابعتنا لمشروع السيدة الخطيب البارز وواسع الأثر، نهدف لتكريم إرثها ومواصلة مشوارها في إحداث التغيير. ففي العامين الماضيين، قمنا بعقد العديد من ورش العمل في المجتمعات المسلمة في جميع أنحاء الولايات المتحدة، كما قمنا بتيسير وتنظيم جلسات حول العنف الأسري في المؤتمرات الإسلامية الوطنية بهدف الوصول لجماهير متعددة. كما تضمّن عملنا حتى الآن تنظيم اجتماع للأئمة في منطقة واشنطن العاصمة لتوقيع بيان مشترك ضد العنف الأسري، وإجراء مسح استطلاعي حول العنف الأسري في المؤتمر السنوي للجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية (Islamic Society of North America) في ٢٠٠٦، ومساعدة معهد الثقة بالإيمان في إنتاج أول فيلم وثائقي حول العنف الأسري في المجتمعات الأمريكية المسلمة.

في فصول هذا الكتاب

نأمل أن يساعد هذا الكتاب في معالجة الفجوة الكبيرة في الأعمال الأدبية حول العنف الأسري في مجتمعات المسلمين. ويحتوي الكتاب على أربعة أقسام: هذه المقدمة إضافة إلى ثلاثة فصول تركز على كل من النموذج الإسلامي، وحقيقة العنف الأسري في السودان وكيف يساهم الإمام في التغيير

النموذج الإسلامي يضع الأساس لبناء أسر مستقرة والمحافظة عليها مع تحليلات متعمقة لأحكام القرآن والأحاديث النبوية والفقه المتعلق بمفهوم الأسرة في الإسلام وتركيباتها والعلاقات بين الأشخاص فيها.

أما القسم الثاني، **حقيقة العنف الأسري**، فيسلط الضوء على خفايا وواقع العنف الأسري في السودان في دراسة للبروفسور عوض محمد أحمد وتوفر صورة واضحة لمدى انتشار هذه الظاهرة.

بينما يركز القسم الثالث **كيف يساهم الإمام في تغيير المجتمع** على الدور الذي يمكن للإمام والقادة الدينيين لعبه للتأثير على المجتمع وإحداث التغيير فيه فيما يتعلق بالمواقف المقبولة والسائدة تجاه العنف الأسري.

التطلع للمستقبل

نأمل أن تولد هذه النسخة المنقحة اهتماماً كبيراً ونقاشات هامة، كما نأمل من المجتمعات المسلمة أن تحذو حذو المنظمات الرائدة الواردة الذكر. ونتطلع أيضاً لأن يكتسب المزيد من قادة المسلمين وعياً أعمق عن ظاهرة العنف الأسري وأثارها المختلفة في الحياة اليومية للأسر. فلن نتمكن من تحقيق هدفنا باستئصال العنف من حياتنا إلا عندما نكسر حاجز الصمت ونتمكن من التحدث عن هذه الآفة الاجتماعية دون خوف. فعندما نتمكن من مناقشة العنف الأسري بشكل صريح ونفهم آثاره على المجتمعات المسلمة على مستوى الأفراد والأسر والمجتمع ككل، سنتمكن من تحديد المداخلات ذات فعالية، وفي الوقت ذاته، تحديد البرامج والآليات الهادفة إلى الوقاية من العنف الأسري.

يتوقف جزء كبير من تحقيق هذه الأهداف على تطبيق المجتمعات المسلمة وقادتها لأمر الله بالقرآن بأن يكونوا "قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ" في قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُّوا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" ويتخذوا موقفاً موحداً ضد جميع أشكال العنف الأسري. ويتطلب هذا الموقف من المسلمين في البداية

إدراك أهمية تطبيق التعاليم الإسلامية بشمولية عند تبنيها في الحياة اليومية، بدلاً من اختيار أجزاء متفرقة قد يكون لها آثار سلبية إن هي طبقت خارج سياق النموذج الاجتماعي الإسلامي الكامل. كما يتطلب تحقيق هذه الأهداف من أفراد المجتمع وقادته والمناصرين تطوير خطة عمل منسقة يعملون من خلالها بفعالية للاستجابة لاحتياجات المجتمع. إن مثال استجابة الإمام للعنف الأسري بشكل منسق يعكس اهتماماً فعلياً في الحادثة التي أوردناها في بداية المقدمة ليست هي الاستجابة الشائعة في معظم المجتمعات الإسلامية في الوقت الحالي، لكن الجهود بدأت تتجه نحو هذا النمط شيئاً فشيئاً. فهنا يبيّن مثال الإمام نوعية التنسيق والتعاون الذين يؤديان إلى مداخلات قابلة لإحداث التغيير وتشجع على مساءلة الأفراد المعتدين.

نأمل أن يأخذ كل المسلمين على عاتقهم مسؤولية تثقيف أنفسهم حول قضايا العنف الأسري وأن يبدأوا حواراً صريحاً عنها. وتطلع إلى مشاركة كل الأسر والمجتمعات المسلمة في تحدي جميع أشكال إهانة النساء في حياتهم العامة والخاصة. كما أننا نحث المزيد من الرجال المسلمين على مناصرة العمل على مكافحة العنف الأسري، فالرجال أيضاً قد يتعرضون للعنف، وقد تكون أمهاتهم وأخواتهم وبناتهم من ضحايا العنف. ويمكن للمجتمعات المسلمة والمراكز الإسلامية أن تدعو مختصين بالعنف الأسري لنشر الوعي وتثقيف أفراد المجتمع حول هذه القضايا وتشجيع جهود المناصرة المختلفة. ويمكن للمسلمين المساعدة من خلال التطوع بوقتهم في مؤسسات ومنظمات الخدمات الاجتماعية التي تساعد ضحايا العنف الأسري، ومنظمات مكافحة العنف الأسري، وملاجئ النساء المعتقات. أما من لا يتوفر لديهم الوقت للتطوع، فيمكنهم مساعدة هذه المنظمات بتقديم تبرعات شهرية كجزء من زكاتهم السنوية، أو من خلال تقديم المواد والطعام والملابس وخدمات الطباعة والممتلكات وغيرها من أشكال التبرعات العينية.

كما نأمل أن يستخدم المناصرون ومقدمو الخدمات من جميع الأديان والإثنيات هذا الكتاب كوسيلة لمعالجة فجوة التواصل والعمل بشكل منفرد لفترة طويلة، فالعنف الأسري مشكلة أسرية ومجتمعية، وليس مشكلة فردية فحسب. وكلنا نقوم بأعمال متشابهة وندعم أشخاصاً يواجهون مشاكل متشابهة. فأن الأوان لتوحيد معارفنا ومواردنا لتطوير استراتيجيات ونماذج عمل ونظريات ومداخلات فعالة لتكون جزءاً من رسالتنا في "مكافحة الاضطهاد" في منازلنا ومجتمعاتنا.

نتوقع أن تنتج عن طباعة هذا الكتاب ردود مختلفة، لكننا نأمل أن يساعد في تحفيز الرغبة لدى الأسر والمجتمعات المسلمة في التعامل بإخلاص مع الحقيقة الواضحة التي يستمر تجاهلها وهي العنف الأسري، والذي يمكنه تدمير أسر وأجيال من مجتمعاتنا.

نحن متفائلون ونتطلع لمشارككم ما تحمله هذه الفصول من رؤى ريادية، والتي ستكون لها أهمية وفائدة ليس فقط للمجتمعات المسلمة، بل أيضاً للمناصرين العلمانيين والمناصرين من مجتمعات دينية وإثنية أخرى. العمل سوياً هو السبيل الوحيد لدمج معارفنا ومواردنا من أجل تطوير مداخلات فعالة واستراتيجيات وقائية لنعيش حياة خالية من العنف.

والسلام عليكم ورحمة الله.

سالمة القاضي أبو جديري ومها الخطيب

النموذج القرآني للأسرة

الدكتورة زينب علواني^٩

المقدمة

تشكل الأسرة في المجتمعات الإنسانية المختلفة الوحدة البنائية الأولية التي يتلقى الفرد فيها القيم والمفاهيم الأولى التي تحكم سيره وحركته في المجتمع والكون. وللأسرة بالتالي دور إرسالي واستخلافي ومهمة حضارية تاريخية في كافة المجتمعات الإنسانية على تعدد نحلها واختلاف أديانها ومللها. من هنا جاء اهتمام القرآن بالأسرة وبما يتوافق وطبيعة الدور البارز الذي تلعبه في حياة الأفراد وتكوين المجتمعات وتركيبه الأمة فكرياً وبنائياً، فلا أمة حيث لا أسرة، بل لا بشرية حيث لا أسرة. ومن هنا تبرز الحاجة الماسة لاكتشاف النسق المفاهيمي القرآني الخاص بها. وتركز هذه الدراسة على معالجة مفاهيم شائكة أدت إلى تصوير الإسلام على أنه يشجع العنف الأسري واضطهاد النساء من قبل الرجال مثل النشوز والدرجة والقوامة وضرب المرأة ونحوها، والتي أسيء فهمها وتطبيقها بين المسلمين وغيرهم.

وتتطرق الدراسة إلى: مفهوم الأسرة في الإسلام، وأبرز القيم التي ينبني عليها هذا المفهوم، وأهم المقاصد القرآنية التي يجب تحقيقها في بنية الأسرة النموذجية إضافة إلى الممارسات أو الأعراف التي قد تؤدي إلى مخالفة تلك المقاصد وبالتالي إلى تفكيك الأسرة الإنسانية وأسباب سوء فهم القصد من النشوز والطاعة وسبل معالجتها وتقييم وتصحيح هذه المفاهيم بشكل منهجي. كما تتطرق الدراسة إلى النموذج القرآني للطلاق.

ماهية الأسرة في الإسلام

الأسرة في الإسلام هي الوحدة الصغرى في المجتمع، لكن لم يفرض أو يحدد الإسلام بالضبط نمط الأسرة غنوية أو ممتدة- بقدر ما حرص على تحديد القيم التي تربط العلاقات الأسرية سواء كان في نظام المحارم أو الزواج من حيث جعل الرابطة الجنسية إطاراً محورياً في تحديد نوعية العلاقات وتحديد المحارم وتوضيح طبيعة كل علاقة بدقة، إضافة إلى توضيح الحقوق والواجبات في كل علاقة. ويمكن تحديد أبرز القيم التي يقوم عليها مفهوم الأسرة في الإسلام بما يلي:

هيكلية الأسرة والقيم العليا

التوحيد

لا يعد التوحيد قيمة عقائدية أو مفهوماً دينياً فحسب، وإنما هو رؤية تحدد معاني وغايات خلق الإنسان وعلاقته بالكون والحياة بحيث تنعكس على منهج التفكير والممارسة العملية، وتوضح أهمية التوحيد في فهم دور الأسرة كنموذج في التغيير والإصلاح والبناء. فأحكام الشريعة الإسلامية تتمركز حول التوحيد كجوهر العقيدة وأساس بناء تشريعاتها. ويمكن في هذا الضوء ترتيب أولويات المجتمع في ضوء ظروفه انطلاقاً من قواعد ثابتة تفرق بين ما هو ضروري لوجود الإنسان واستمرار عيشه وما يمكن الاستغناء عنه أو تأجيله، وفي ظل معيار يوحد الحق ويخضع له ولا يخضع للمصلحة المتغيرة، وإنما تحدده الشريعة الحاكمة العادلة النابعة من التوحيد^{١٠} (يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْلَمُوا^{١١} اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) المائدة: ٨، أما في حالة فقدان المعيار الإلهي للعلم والمعرفة والتشريع تفقد المصلحة تحديدها بالحق ويصبح الهوى حاكماً.^{١١}

الاستخلاف

يضبط مفهوم الاستخلاف حركة الإنسان من خلال التعريف بمهمته وغاياته وجوده، فهو كائن مكلف مستصلح للدارين^{١٢} لما يحمل من خصائص وصفات تؤهله لحمل الأمانة التي كلف بها. ويعد مفهوم الاستخلاف في إطار الرؤية الإسلامية الكلية في بناء الأسرة مفهوماً حاكماً لما يحمل من معانٍ تنظم ممارسات الإنسان ومسيرته. فمهمة الاستخلاف تشمل الرجال والنساء ولا يتم إنجاز المهمة بطرف دون الآخر. ولذلك يقوم هذا المفهوم على توحيد حركتهما في ظل علاقات محورية عامة تساعد في بناء الأمة ثم تنسحب هذه المقومات للعلاقة لتكون لها خصوصيتها في الأسرة.

وهكذا يُورد الخطاب القرآني قضية الزواج على سبيل المثال في أكثر من مستوى من مستويات العمران الاجتماعي: مستوى خاص يتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة، ومستوى أسري يتعلق بالزوجين كمكلفين بأدوار اجتماعية مختلفة في إطار محيط القرابة، ومستوى عام يظهر فيه الزوجان كجزء من جماعة المؤمنين وخليّة حية من خلائها.^{١٣}

قيم بنائية في ضبط علاقة الرجل والمرأة

أولاً: الولاية

لقد وسع القرآن الكريم معاني مفهوم الولاية في مجال العلاقة بين المؤمنين والمؤمنات لبيح جميع مجالات التفاعل الإنساني وليخرج به من إطار علاقة أفراد إلى تكوين أمة. قال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) التوبة: ٧١. والولاية في الآية تحمل معاني التعاون على تفصيل المعروف، ومعالجة المنكر، والتناصح الصادق بين المؤمنين التي تعد أهم المحاور التي تؤسس لبناتها معالم الأمة.

ففي مفهوم الولاية تتحرر العلاقة بين الرجل والمرأة من المستوى المبني على الاختلاف بين الجنسين أو تمايز أحدهما على الآخر لا لسبب كسبي أو لعمل قدمه إلا لكونه ذكر أو أنثى، لتخرج إلى مستوى أهم وأعلى وهو الاختلاف والاتفاق على اختيار أسس العقيدة والتنافس في إجادة العمل المؤدي إلى السعادة في الدنيا والآخرة، فيكون هناك فريقان أو وحدتان: فريق من آمن بالله من الرجال والنساء، وفريق من كفر بالله وخالف أو امره ونواهييه من الرجال والنساء أيضاً.

ثانياً: الزوجية

لقد برز مفهوم الزوجية في القرآن في حقل مناقشاته لقضية الوجود في مقابلاته الثنائية بين الخالق والخلق، وذلك في مجال وحدانية الخالق والتعددية النوعية لدى المخلوقات، لكي تتحقق من خلالها عمليات التلاقح أو التناسل كي يحفظ أفراد النوع، قال تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ، دَبَّحَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) الأنعام: ١٠٠-١٠١، (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) الشورى: ١١.

وقد يكون مفهوم الزوجية من أهم المنظومات المفاهيمية في إطار صياغة تصور علاقة الرجل والمرأة في الإسلام، وذلك لأن لها بعدان: بعد كوني وبعد بشري،^{١٤} قال تعالى (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) الذاريات: ٤٩، (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) الحج: ٥، (فيهما من كل فاكهة زوجان) الرحمن: ٥٢، (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى) النجم: ٤٥-٤٦ وقال

(خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمًا تُصِرُّونَ) الزمر: ٦.

وبذلك فإن إثبات الزوجية لسائر المخلوقات في الكون، فضلاً عن النظام الفيزيائي المادي للكون، يعبر من جهة عن انسجام بين الحياة البشرية والطبيعية بشكل عام ويستبعد بذلك التصورات التي تضع البشر في مواجهة الطبيعة.

كما يؤكد على ضبط معناها في الحدود الإنسانية بالرغم من وجود اختلاف يعكس وحدة الاصل وتنوع الفروع، قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) النساء: ١، وهذه الوحدة تشكل تأكيداً للوشائج الإنسانية التي تربط بين الجنسين وتؤطر أي رباط قانوني أو اجتماعي مستحدث، وبذلك يصبح الاختلاف تكاملاً وتعاوناً.

وإن الاستعمال المتكرر لمصطلح "الزوجين" في القرآن الكريم يدل على تأكيد الثنائية بتحديد الذكر والأنثى تعريفاً لهما (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ، مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ) النجم: ٤٥-٤٦، (فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ) القيامة: ٣٩، وبذلك حدد بالضبط المعنى دون فتح أي مجال لتعدد الأجناس كما هو في المنظور الغربي في استخدامه لمفهوم الجنس.

فطالما الزوجية تعني وحدة الأصل وتعدد الفروع، فلا بد من التكامل الوظيفي، فلا يستغني أي من الجنسين عن الآخر. وبذلك يصبح للانقسام النوعي وظيفة هي إيجاد وسيلة استمرار وبقاء النوع البشري والتكاثر من خلال التزاوج بين الذكر والأنثى لتحقيق التكاثر والإعمار المادي (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات: ١٣، وهو عكس ما تزعمه وتدعو إليه الحركات النسوية من التفرد الجنسي والصراع بين الاثنين.^{١٥}

وبذلك يطرح مفهوم الزوجية منظومة دلالية متباينة ومختلفة تماماً للعلاقة بين (الذكر والأنثى) تختلف عن أطروحات النوع في الكتابات النسوية – المجتمعات أحادية الجنس - والتي قد تفتح احتمالات التعدد. أما النموذج الإسلامي – المجتمعات الثنائية الجنس - فيطرح مصطلح الزوجين لتأكيد الثنائية المتكاملة بتحديد الذكر والأنثى، والتي تتضح فيها وحدة الأصل وتعدد الفروع.^{١٦}

وبذلك يتم تجسيد مفهوم الزوجية في الإسلام عملياً من خلال مؤسسة الأسرة، فتترجم الزوجية في ظلها من مفهوم عام إلى رابطة محددة بين أفراد معينين خلال علاقة الزواج. وهناك تتجسد فعلياً مفاهيم التكامل الوظيفي والعمران والتكاثر وبقاء النوع الإنساني فيتم توزيع الوظائف والأدوار بين الطرفين عبر منظومة محددة وملزمة من الحقوق والواجبات المترتبة على الزواج. فتكفل الخالق بتوفير الدوافع الذاتية للارتباط بين الاثنين من خلال الرغبات الطبيعية كربة الجنس والأمومة والأبوة وحب التملك وحب الذرية...، ونحوها لتتكون بذلك الأسرة الإنسانية.

وهكذا يدعو مفهوم الزوجية إلى التكامل والتعاون والمشاركة وتبادل الخبرات وتنوعها الإيجابي الذي يساعد على التكاملية لأداء المسؤوليات المختلفة، حيث إن وجد أحدهما منفرداً يؤدي إلى اختلال في التوازن الوظيفي.

الزواج ومقاصده بين النموذج القرآني والعرف الإنساني

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان مجبولاً على العديد من الغرائز الفطرية المتصلة باحتياجاته الجسدية والنفسية. ولقد اعتنى الإسلام بتنظيم تلك الغرائز بأطر معينة تجعلها إيجابية العواقب، وقد تكون من أخطرها غريزة الجنس وهي من أهم الدوافع الذاتية للارتباط بين الذكور والإناث. فوظفها الإسلام في إطار مشروع تحكمه القيم والوظائف الاجتماعية وجعل من الزواج الإطار الوحيد الذي يحقق مفهوم الممارسة الجنسية المسؤولة اجتماعياً وقانونياً

وأخلاقياً ومادياً وتناسب الدور الخلقي للإنسان وتتفق وكونيته، فلم يمنعها، ولم يطلقها ليتحول الإنسان إلى حيوان شهواني، وإنما نظمها، فأنجبت علاقات امتدت بخيرها لبناء المجتمع.

وقد تناول القرآن الكريم هذه المسألة من جوانب متعددة ابتداءً من **دوافع الرجل والمرأة للزواج**، فأكد على الجانب الجنسي لدى الرجل كدافع للعلاقة الزوجية، ويكون هذا العامل من أهم الحقوق التي يحصل عليها الرجل من العلاقة الزوجية كما جاء في قوله تعالى: (فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة) النساء: ٢٤.

أما بالنسبة للمرأة فهي جملة مركبة من الدوافع، وما الغريزة الجنسية إلا واحدة منها، فهي تنشأ من علاقة الزواج تأمين الاحتياجات الغريزية والعاطفية والنفسية والمادية والاجتماعية، وبلا شك قد يشترك الرجل مع المرأة في تلك الدوافع ولكن المرأة أشد حرصاً على تحصيلها من خلال العلاقة الزوجية.

ولذلك شدد القرآن الكريم على جملة من الحقوق المادية والمعنوية للمرأة تبدأ بحقوقها في ضمان الإنفاق عليها ثم التأكيد على المعاشرة بالمعروف والمودة والرحمة والسكينة وغيرها. وهذا التعاقد الاجتماعي بين الزوجين وتحليل دوافع كل منهما أطلق عليه القرآن الكريم مفهوم **"الإحصان"**، حيث يستهدف تحقيق احتياجات الزوجين بشكل شرعي يتسم بالتوازن والعدل والرحمة.

وحرّم الله سبحانه وتعالى علاقات موازية للزواج مثل الزنى أو أي علاقة تقاربه أو تشابهه في مآلتها، وفرض القرآن عقوبات رادعة للزنى،^٢ وذلك لما يحمل من تقييد غير مسؤول باحتياجات الغريزة الجنسية، مما يؤدي إلى تضييع حقوق أطراف مهمة في العلاقة وهما المرأة والطفل، وكذلك بما ينطوي عليه من غياب البيئة الصالحة للتنشئة واختلاط الأنساب وافتقاد الوظيفة الاجتماعية للعلاقة بين الرجل والمرأة في دعم التماسك الاجتماعي من خلال علاقات النسب والصهر بما يثيره من أسباب التفكك والهدم (وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِتْنَهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا) الإسراء: ٣٢.

وقد تضافرت النصوص القرآنية على إثبات أن هيكليّة العلاقة الزوجية الإنسانية السليمة تبنى على:

١. أساس منظومة الزوجية والمتمثلة بعلاقة الزواج بين رجل وامرأة يرتبطان معاً برباط شرعي قانوني.
٢. فجعل الزواج آية من آياته الكونية التي تتحقق في إطاره الممارسة الجنسية المسؤولة في جو من السكينة والمودة والرحمة، وهي متناسبة مع الدور الاستخلافي للإنسان ومهمته الحضارية (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الروم: ٢١، فأخرج بذلك الممارسة الجنسية من إطار اللذة إلى المؤسسة.
٣. فمفهوم الزواج لا يطلق إلا على علاقة شرعية بين رجل وامرأة اتفقا على مراعاة حدود الله وأداء المسؤوليات الملزمان بها والتمسك بالقيم التي أمر الله بها للحفاظ على بنية المؤسسة الداخلية والخارجية من تقوى الله وبث المودة والرحمة لتوفير السكن، والتعامل بالمعروف والإحسان والفضل، وإقامة العدل، بالتشاور والتألف.^٣
٤. وبذلك يتم تحديد مفهوم الأسرة كوحدة صغرى للمجتمع من حيث أنها المؤسسة الاجتماعية الشرعية لعملية التكاثر، يؤسسها مكلفان مسؤولان، وتتم من خلالها عملية التكاثر -حفظ النسل- في إطار منظم تتضح فيه وتحدد العلاقات والحقوق والالتزامات في ظل معلوم من النسب والانتساب خال من العلاقات الزائفة.

^٢ سورة النور من ١-١٠.
^٣ آيات سورة البقرة من ٢٢٨-٢٣٧.

٥. فتوفر الأسرة ضمانات معنوية ومادية لإتمام عملية التنشئة السوية لصغار الجنس البشري، كما أنها تنظم توزيع المسؤوليات بين الزوجين (الرجل والمرأة) للقيام بوظيفة التكاثر على أساس ثنائية الدور البيولوجي والاقتصادي، فالمرأة ودورها الحضاري في حمل صغار الجنس البشري ورعايتهم من حمل وولادة ورضاع وفصال وتنشئة، والرجل ودوره الاقتصادي في إعالة أسرته.^{١٧}

٦. وهكذا يكون الزواج مؤسسة تتحقق أهدافها كعلاقة بين الزوجين في إطارها الجسدي والنفسي متمثلة بمفاهيم قرآنية كاللباس، والحرث، والإفضاء. فاللباس كناية عن القرب الشديد،^٤ والحرث^{١٨} فيه تشبيه للمرأة بالأرض الطيبة التي هي أصل الإنسان (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) طه: ٥٥، فيتجاوز الجانب الحسي وينقلها إلى الجانب العمراني حينما يربط بين الأرض الطيبة ونتائجها والمرأة وعطائها الصالح.^{١٩} والإفضاء وهو الوصل (وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا) النساء: ٢١، ولقد ذكرت مرة واحدة في القرآن وهي كناية عن تفرد الاتصال الجسدي والنفسي بين الزوجين. أما المودة فهي الحب والألفة التي تتجاوز الجسد إلى أرقى درجات المحبة. والرحمة وهي المظلة التي تجمع أواصر العلاقة بين الزوجين وتحميها وتحفظها بتراحم أطرافها.^{٢٠}

٧. وقد تناول القرآن الكريم مفهوم الحرث لبيان العلاقة الجنسية بين الزوجين وذلك من خلال مراعاة الطرفين لمشاعر بعضهما البعض، كما يحدث للمرأة في فترة الحيض (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا مِنَ النِّسَاءِ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) البقرة: ٢٢٢. فيحث سبحانه جمهور المؤمنين من الرجال على حسن المعاشرة التي تعلق إلى مستوياتها الإنسانية تراعى فيه حالة المرأة النفسية والجسدية قظلل الرحمة علاقتهما. وهكذا يتحقق معنى السكن في مستوى العلاقة بين الزوجين، ولا تتحول إلى علاقة جبر وإرغام كما يحصل اليوم في بعض العلاقات الزوجية، حيث تغيب معاني السكن والرحمة حتى تنحصر العلاقة الجنسية بشكلها الحيواني وتستعمل كأداة لإكراه الزوجة وإهانتها، بل والأدهى في هذه القضية زعم الرجل أن إرغامها هو أمر إلهي يجب عليها طاعته وتنفيذه متناسياً الرؤية القرآنية والتطبيق النبوي الشريف في هذا المجال.

٨. تحولت العلاقة الزوجية في ظل تعاليم الوحي إلى نوع من أنواع العبادة تتحقق في ظلها معاني الإحسان والاستغناء بالحلال الطيب كما وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم: وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يارسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ قالوا: بلى. قال فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له فيها أجر^{٢١} رواه مسلم. كما رفع مستوى العلاقة من الحيوانية إلى الإنسانية حيث يتوجه المؤمن إلى الله بالدعاء قبل الممارسة، ثم أوجب الغسل بعدها، وجعلها من خصوصيات الإنسان لا ينبغي لأحد الاطلاع على أسرارها. وكل هذا عكس ما تعرضه الحضارة الغربية من كشف للعورات بل من ممارسة العملية أو مقدماتها علناً على الملأ دون استحياء من خلال وسائل الإعلام لتعيدها كممارسة إلى مستوياتها الحيوانية.

٩. ولتحقيق مقصد السكن في هذا المستوى فقد حرم الإسلام الزواج بين القربات الوثيقة من الفروع والأصول (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخْوَالُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَالُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِمَّنْ نَسَأْتِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا

^٤ (أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ) البقرة: ١٨٧، ولللباس هنا معنى عميق يجمع المفهوم الحسي والمعنوي المتمثل في قوله تعالى (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ) الاعراف: ٣٦. لقد استعملت كل تلك المفاهيم في رسم صورة قرب العلاقة بين الزوجين بكل دقة وتكامل، فهي علاقة تجمع كل معاني التكاملية في الإنسان ما بين الحسية منها، والمعنوية، علاقة تمتد بجذورها إلى اعماق النفس الإنسانية بنوعها الذكر والانثى لتشكّل بتراهما بنية الجماعة البشرية القائمة على المودة والمحبة والرحمة والسكن تصوير يرتقي بالإنسان من المادة إلى الجمع بين الروح والجسد، علاقة تتجاوز الحياة الدنيا إلى الآخرة، قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) الفرقان: ٧٤-٧٦.

دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَاحُ جُنَاحٍ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَنْبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُحْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا النساء: ٢٢-٢٣، فحيثما انتفت حكمة التقريب لوجودها الفعلي انتفت حكمة الزواج وقضي بتحريمه.

١٠. وفي نفس الإطار دعم الترابط الاجتماعي والحد من عوامل الصراع والتفكك، فتحرم أي علاقة تؤدي إلى الصراع مثلًا تحريم الزواج بالمحارم والمحرمات، تحريم الرجل أن يخطب على خطبة أخيه المسلم وهو يعلم مسبقاً،^٥ وكذلك تحريم الخيانة الزوجية من أي من الطرفين. واليوم تكثر الخيانة الزوجية في المجتمعات الإنسانية عموماً والغربية خصوصاً. من الطرفين دون مراعاة لمعاني السكن والإحسان والذي من معانيه الحماية والحصانة الداخلية النفسية والأخلاقية الموجبة للعفة لكلا الطرفين.

كما تطورت العديد من العادات والأعراف في العلاقة الزوجية في المجتمعات المسلمة التي تخالف المفهوم القرآني، مثل تكريس مفهوم طاعة الزوج والذي منح الزوج حق التسلط على زوجته وأولاده، فغابت مفاهيم الرحمة والمودة وحلت القسوة والشدّة، فأباح الزوج أو الأب لنفسه استعمال العنف بكل أنواعه من الضرب الجسدي إلى الإهانة بالشتيم والتجريح النفسي والعاطفي، ولا يسمح بالتدخل لإيقاف هذه التصرفات لأنها تعتبر ضمن إطار علاقة الرجل الخاصة بأهله، وهكذا أسى تفسير مفهوم القوامة وجميع المفاهيم المرتبطة به.

وقد غيَّب مفهوم ودور الأسرة الممتدة والذي يفترض أن يشكل هيكلية العلاقات الإنسانية، والتي يتم من خلالها بناء وتحقيق معاني مفهوم المعروف والإحسان والفضل والتعاون على البر والتقوى وتحقيق البر بالوالدين وصلة الرحم والعناية بالجار والصديق وغيرها من المفاهيم المهمة التي تبني علاقات إنسانية صحيحة. فتحوّلت هذه المعاني المؤدية للسلام وحسن العشرة إلى معانٍ تدعو إلى التباغض والتصارع والنزاع حول أمور غالباً ما تكون مادية. فلم تعد الأسرة الممتدة مصدراً للمحبة والسلام النفسي والتعاون، وهكذا أصبح المرء يفضل الابتعاد عن أسرته بدلاً من اللجوء إليها عند الحاجة.

الزواج وتنظيم المسؤوليات

القوامة بين المفهوم القرآني والممارسة الواقعية

القوامة

يدور لفظ القوامة حول معاني النهوض والسعي وبذل المشقة في سبيل أحد أو شيء والعزم والسهو عليه والرعاية وتعهد الشيء والمثابرة والبقاء وأداء الشيء على النحو المفترض ودوام الالتزام بالأمر. وتدخل مجمل هذه المعاني في منظومة الزوجية وما انطوت عليه من توزيع وظائف، وهكذا يكون سعي الرجال والإنفاق على النساء مقابل قيامهن بوظيفتهن الطبيعية في الإعمار.

ولقد ذكرت لفظة قوامون كصيغة مبالغة في ثلاثة مواضع كقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَسْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) النساء: ١٣٥، وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ) المائدة: ٨، وهنا يظهر واضحاً ارتباط القوامة مع الشهادة بالعدل، وقوله (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَقِطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي

^٥ عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنه كان يقول: نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب" رواه البخاري ومسلم.

الْأَمِّيْنَ سَبِيلٌ وَيُقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) آل عمران: ٧٥ أي ثابتاً على طلبه. ومن القيام الذي هو العزم (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) المائدة: ٥٥ أي يديمون فعلها ويحافظون عليها، ومن معاني القوام اسم لما يقوم به الشيء، أي يثبت كالعماد والسناد لما يعمد ويسند به. وقوله تعالى (جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) المائدة: ٩٧ أي قواماً لهم يقوم به معاشهم ومعادهم.

وهكذا فسعي الرجل مناط ليس بالمال فحسب وإنما بالرعاية المادية والمعنوية (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً^٦ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً) النساء: ٣٤.

"بما فضل الله بعضهم على بعض" قد تعود على "الرجال" في التنافس بينهم للفضيلة. إلا أن التطورات التي حدثت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من فتوحات واختلاط بأعراف وتقاليدي بيئات أدت إلى تغيير معنى هذا المفهوم. ففسرت (قوامون) باعتبارها ممارسة السلطة والهيمنة والتأديب وقرنت مع (الدرجة) والتي وردت في سياق آيات الطلاق في سورة البقرة (وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ^٧ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ^٨ وَيُعْلِنُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ^٩ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ^{١٠} وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) البقرة: ٢٢٨ والتي قد ترتبط والله أعلم بحق الرجل بالطلاق والمراجعة بما أنها ذكرت في سياق آيات الطلاق، كما أكد على ذلك سيد قطب في تفسيره في ظلال القرآن: "١١ (وللرجال عليهن درجة) يقول سيد قطب: "أحسب أنها مقيدة في هذا السياق بحق الرجال في ردهن إلى عصمتهم في فترة العدة، وقد جعل هذا الحق في يد الرجل لأنه هو الذي طلق، وليس من المعقول أن يطلق هو فيعطي حق المراجعة لها هي! فتذهب إليه وترده إلى عصمتها فهو حق تفرضه طبيعة الموقف وهي درجة مقيدة في هذا الموضوع، وليست مطلقة الدلالة كما يفهمها الكثيرون ويستشهدون بها في غير موضعها".

ولكن هناك عدد من التفاسير^{١٢} التي كرست معنى (الدرجة) لتأكيد معاني السلطة والتعالي ثم جمعت بين القوامة والدرجة لتكرس مفهوم تسلط الرجل على المرأة، والذي يعكس بالنسبة لهم معنى التفضيل. ويأتي التخصيص (بما فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)، الذي لم يرد على صيغة (بما فضل الله بعضهم على بعضهم)، وكأن المعنى هنا بما فضل الله بعض الرجال على بعض، فمنهم لديه فضل العلم ومنهم القوة أو المال أو الأخلاق وغيرها، فهو يقوم على رعاية نسائه بهذا الفضل الإلهي. في حين أن القرآن الكريم خصص ألفاظاً معينة للدلالة على السلطة (وكيل، مهيم، مسيطر، سلطان)، ولكن تكريس هذه الأفكار في إطار العلاقة بين الرجل والمرأة أدى إلى غياب الوعي عن إدراك البعد الوظيفي لتقسيم العمل تاريخياً واجتماعياً بين الزوجين كأمر يقوم لصالح العمران البشري، وفُسر التقسيم الوظيفي لصالح الرجل.

ولذلك بين القرآن مباشرة في نفس آية القوامة نوعية النساء الغالبة واللاتي يقابلن الرجال القائمون بدور القوامة كما ينبغي بأنهن (فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ^{١٣})، أما الناشرات فهي الحالة الاستثنائية في المعادلة^{١٤}. قال الشيخ ابن عاشور في معناها: استئناف ابتدائي لذكر تشريع في حقوق الرجال والنساء والمجتمع العائلي، وقد ذكر عقب ما قبله لمناسبة الأحكام الراجعة إلى نظام العائلة، لاسيما أحكام النساء، فقوله {الرجال قوامون على النساء..} أصل تشريعي كلي تتفرع عنه الأحكام التالية له، وقوله {فالصالحات قانتات..} تشريع عنه، وهو عام في جميع صنف الرجال والنساء من النوع الإنساني، وقيام الرجال على النساء هو قيام الحفظ والرعاية والدفاع، وقيام الاكتساب المالي،^{١٥} وأما النساء فوصفن بكل صفات الخير وهي:

^٦ (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً^٦ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيراً) النساء: ٣٤.

صفات النساء القدوة

فإلصالحات: لغة: الصلاح هو ضد الفساد وهما مختصان في أغلب الأحيان بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد وتارة بالسيئة. وفي الإشارة إلى النساء فهي صفة تتصف بها الزوجة العفيفة الصالحة التي لا تبغي إلا الصلاح في نفسها وأسررتها وأمتها.

أما القنوت فيتبين من قراءة آيات القرآن أنها لم تذكر إلا بمعنى لزوم الطاعة لله تعالى، وهذه الطاعة مصطحبة بمراقبة الله وحفظ ورعاية أوامره ونواهيه التابعة لصفات الإحصان والتي ظهر فيها التشابه بين صفات مريم وصفات أمهات المؤمنين وصفات النساء الصالحات (في آية القوامه) المقتديات بأمهات المؤمنين ومريم بنت عمران المتصفة بالإحصان والعفة والقنوت، هذه هي الصفات العامة التي تتميز بها المرأة المسلمة بكل أدوارها.^{٢٥}

أما الحافظات: الحفظ: فله استعمالات منها أنه يستعمل في كل تفقد وتعهد ورعاية، قال تعالى {وإن له لحافظون} {لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين} {والحافظين فروجهم والحافظات} كناية عن العفة، أما {حافظات للغيب بما حفظ الله} أي يحفظن عهد الأزواج عند غيبتهم بسبب أن الله يحفظهن أن يطلع عليهن وقرئ {بما حفظ الله} أي بسبب رعايتهن حق الله تعالى، لا للرياء والسمعة وتصنع منهن، بل لمراعاتهن ومراقبتهن الله تعالى^{٢٦} عامة باختيار الزوجة الصالحة. فالحفظ هنا بما حفظ الله هو من طبيعة الصالحات، ومن مقتضى صلاحهن".

فقوامه الرجل تستدعي منه الرعاية والاهتمام، فقد كان صلى الله عليه وسلم يستقضي مشاعر زوجته كما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لا أعلم إذا كنت عني راضية وإذا كنت علي غضبي قالت فقلت من أين تعرف ذلك فقال أما إذا كنت عني راضية فإني أقول لا ورب محمد وإذا كنت علي غضبي فقلت لا ورب إبراهيم قالت فقلت أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك^{٢٧} وبطبيعة الحال فإن أسلوب التعامل مع الغضب ليس كالرضي.

فيصبح الرجل في ظل القوامه القرآنية قائماً على أمور المرأة ورعايتها وحفظها تحت مظلة المعروف. كما نجد مفهوم "المعروف" مفهوماً مفتاحياً يوظف لفهم آلية العلاقة الواحدة ودورها مع العلاقات الأخرى. وهو من المفاهيم القرآنية عميقة المعنى، واسعة المعطيات، حيث يمتد تعريفه من التأصيل النظري إلى الممارسة العملية بشكل متكامل وتتداخل فيه مناهج الفهم والتطبيق على جميع المستويات.

وكان القرآن يترك تلك المساحة مفتوحة للإنسان ليجتهد ويبدع في تحويل القيم القرآنية إلى واقع يعيشه الإنسان، فتصبح المسؤولية بذلك تشريفاً، كما بين ذلك محمد عبد الله دراز: "والمسؤولية قبل كل شيء استعداد فطري، إنها هذه المقدره على أن يلزم المرء نفسه أولاً، والقدرة على أن يفي بعد ذلك بالتزامه بوساطة جهوده الخاصة. فإذا أخذت المسؤولية بهذا المعنى الرحب والأولى - فلن تكون سوى سمة من السمات المميزة التي يأخذها الإنسان من جوهر ذاته."^{٢٨}

فالزوج يبذل أقصى جهده في حسن التعامل مع زوجته وله الأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذا ما فهمه ابن عباس رضي الله عنه حين قال: "إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي." قال أبو جعفر الطبري:^{٢٩} (وهو من أوائل من نقلوا مقولة ابن عباس، وفسرها إيجابياً) قال: والذي هو أولى بتأويل الآية عندي: أن الذي على كل واحدٍ منهما لصاحبه من ترك مضارته مثل الذي له على صاحبه من ذلك. كما نقل عنه الطبري: وأولى الأقوال بتأويل الآية ما قاله ابن عباس وهو الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها وإرضائه لها عنه وأداء كل الواجب لها عليه، لأن الله تعالى ذكر وللرجال عليهن درجة عقب قوله تعالى {ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف}.

وليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذهُ عبداً يستنله ويستخدمه في مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه.^{٢٠}

وبينت سورة (النساء) الدرجة التي جعلها الله على النساء بعد أن سوى بينهما في الحقوق والواجبات وأنها لاتعدو درجة الإشراف والرعاية التي يمتاز الرجل على المرأة، وبحكم الكد والعمل في تحصيل المال الذي ينفقه في سبيل القيام بحقوق الزوجة والأسرة.^{٢١} وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد والتسخير كما يصورها المخادعون، وأقرأ في ذلك قوله تعالى {وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبِعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} البقرة: ٢٢٨.

تنوع الأدوار وأثار ذلك في فهم معاني التفضيل:

أنه من المعلوم أن تنوع واختلاف الأدوار بين الرجال والنساء، بل وبين أفراد الجنس الواحد (جنس الذكور و جنس الإناث) إنما هو لغاية التكامل والتوازن بين تلك الأدوار لإتقان المهمة وهي "خلافة الإنسان في الأرض"

فيكون المقصد هنا في جعل للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن، على أساس أنهما وحدتان منفصلتان ومختلفتان في الخصائص والمميزات الذاتية التي تمكن كل منهما من القيام بواجباته الخلاقية بصورة حرة فعالة بما زود به من إمكانات طبيعية وفطرية، فلكل ساحته التي يقوم بدوره الاستخلافي فيها، ولكن في الوقت ذاته هناك جانب لا بد من إدراكه واستيعابه والعمل على تنفيذه وإلا فشل مشروع تطبيق معاني الاستخلاف، ألا وهو تكاملية الجانبين وتعاونهما لا تصارعهما، والذي يترك هناك مساحة للتنافس والتسابق في تطبيق الأصول الاستخلافية بين الجنسين (الوحدتين) على الوجه الذي يؤدي بها إلى إقامة العمران في الأرض، التنافس الذي يؤدي بكلا الطرفين إلى التسابق في تزكية النفس والارتقاء بها إلى أعلى الدرجات بأداء الأعمال الصالحة الطيبة التي أمر الله تعالى، واجتتاب الأعمال الخبيثة السيئة التي نهى سبحانه عنها.^{٢٢}

وعلى هذا يكون العمل هو المفتاح الأساسي في توضيح معنى التفضيل والذي يسري بذلك على الطرفين، أي أنه يفهم في إطار تمايز كل منهما في خصائص الرجولة والأنوثة والتنافس فيما بينهما للارتقاء في العمل^{٢٣} في أداء وإتقان الأدوار التي أنيطت بكل منهما على المستوى الإنساني عموماً أو على مستوى الجنس خصوصاً، وبطبيعة الحال فإن التفضيل أو التكريم على مستوى قبول العمل مرتبط وتحديد معاني "تقوى الله" تركت له سبحانه (إن أكرمكم عند الله أتقاكم).

وبذلك يتبين من معاني فلسفة التفضيل القرآني إيجابية المفهوم لا سلبية، ومعاني العدالة فيه، حيث أن عملية التفضيل كسببية تعتمد على عمل الإنسان وتحصيله للفضل، وهذا هو طريق العدالة ليفتح باب التنافس بين البشر حتى بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فكيف تحول هذا المفهوم القرآني الحركي القائم على التسابق بالخيرات والتنافس في طاعة الله بين الرجال والنساء إلى مفهوم سلبي قائم على تفضيل الرجل ذاتياً على المرأة بقوته وضعفها الجسدي؟

أليس هذا مما يخالف العدالة الإلهية ولكنها إسقاطات الإنسان النسبي أعرفه على القرآن الكريم. فيكون بذلك بما فضل الله بعضهم على بعض يسير على الطرفين في تحصيل الخير والارتقاء إلى الله تعالى، وهذا ما حاول ابن

عباس توضيحه في مجال الحقوق والواجبات وحول معاني الدرجة إلى معاني التنافس بين الزوجين في إرضاء الله تعالى، فأخرج المعنى من تفضيل الرجل على المرأة إلى معاني التسابق بينهما في طاعة الله في علاقتهما الزوجية.

وبقراءة مفاهيم القوامه والدرجة قرأنا ومن خلال ممارسات النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته أزواجاً وأولاداً قراءة كلية تضم جميع الجزئيات المتعلقة بالموضوع،^٨ نجد أن دور الرجل في طبيعته يكمل دور المرأة والعكس صحيح في توازن وتفاعل يجعل من أداء دور الخلافة مستحيلاً من غير تكامل العمل فيما بينهما. وهكذا فإن أي ممارسات من عنف أسري أو تكبر أو تسلط أو تعالي تحت مسمى القوامه إنما يأتي مخالفاً للقيم الكلية القرآنية، وهادماً لكليات التشريع وسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

الطاعة والنشوز في العلاقة الزوجية

إن من أكثر المفاهيم التي أسيء فهمها وتوظيفها في العلاقة الزوجية هي الطاعة والنشوز. إن استقراء معاني الطاعة في القرآن الكريم سواء كانت لله تعالى أو الرسول تستدعي أن لا يقدم إنسان الطاعة إلا بعد التفكير والتأمل في الأدلة والبراهين ورفض التقليد الأعمى كما في قوله تعالى: {قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} الأنبياء: ٥٣-٥٤.

بين رسول الله صلى الله عليه وسلم في سيرته وسنته ضوابط معاني الطاعة التي تستبطن معاني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو بمعنى آخر التناصح، حيث قال صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة لمخلوق في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف) رواه مسلم.^{٣٣}

وهكذا فقد ركز القرآن الكريم على إخراج إنسان الخلافة وإنسان القرآن من منطق الطاعة العمياء إلى إنسان التفكير والتأمل والنظر لتقدير الاجتهاد المؤسس على تلك الأسس التي تهيء صاحبها أن يكون عضواً في أمة أهم مميزات أعضائها أنهم يؤمنون بالله ويتسابقون بالخيرات ويدعون إلى كل ما فيه خير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

أما اليوم فأسوء مفهوم الطاعة في كل مستوياته وخاصة طاعة الزوجة للزوج، فتحول إلى وسيلة أو ذريعة تبيح للزوج استعمال العنف ضد الزوجة بلا قيود. فيدعي الرجل بأنه حق منحه إياه الله يخول له أن يفعل ما يشاء متجاوزاً فيه كل القيم والمقاصد القرآنية العليا التي تدعو إلى التعامل بالحسنى والمودة والرحمة والسكينة ليلجأ للضرب والإيذاء اللفظي والعاطفي والمعنوي مما يفكك الأسرة ويؤدي إلى الكراهية والحقْد. أما النشوز فهو مفهوم آخر أسيء فهمه ووظف لتدعيم المفهوم الخاطئ للطاعة بشكل يهدد حياة الزوجة والأسرة بشكل مستمر.

النشوز في العلاقة الزوجية

معنى النشوز في اللغة العربية التعالي والكراهية كما جاء في لسان العرب^{٣٤} حيث قال: والنشوز كراهية كل منهما صاحبه وسوء عشرته له. ورجل نشز: غليظ عيل، ويقال للرجل إذا أسن ولم ينقص: إنه لنشز من الرجال أما نشوز المرأة فهو بغضها لزوجها ورفع نفسها عن طاعته وعينها عنه إلى غيره. لقد رد النشوز في القرآن الكريم في أربعة مواضع:

- قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ^{٣٥} وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ - المجادلة: ١١

^٨ آيات سورة البقرة والنساء في قضايا الزواج والطلاق، والتوبة (٧١-٧٢)

• قال تعالى: أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لحمًا فَلَمَّا نَبَّيْنَاهُ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ - البقرة: ٢٥٩

• أما النشوز في الأسرة فوردت في موضعين وسياقين مختلفين، الأول حالة نشوز الزوجة: ... الرَّجَالُ قَوْمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا - النساء: ٣٤.

• وفي الحالة الثانية نشوز الزوج: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنِ نَحْسِبُوا أَن يَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا - النساء: ١٢٨.

ضوابط منهجية في فهم النشوز والطاعة

تعتبر القيم قواعد وضوابط منهجية تساعد في استيعاب معاني القرآن الكريم وأحكامه. فالقيم في الأسرة لبنات تكوينية ضابطة. فالنزكية تعد ضابطاً شرعياً في عملية بناء وتطوير بُعد المسؤولية عند الإنسان المسلم في ارتقائه وتساميه في تطوير علاقته مع خالقه سبحانه، والتي تتطور من خلالها علاقة الإنسان بكل من وما حوله، بحيث تنشأ رؤية جديدة تحمل في ثناياها معاني التقوى ومراقبة الله كمدخل أساسية تبنى عليها لبنات المنظومة القيمية القرآنية، فتصبح كل قيمة أو خلق تكليفاً شرعياً يكلف المؤمن والمؤمنة بالعمل به (وليس فضيلة اختيارية)، فتتحول إقامة العدل والإحسان والإصلاح والصبر والتشاور والعتف والتراحم إلى صفات يتصف بها المسلم والمسلمة، ومنظومة قيمية يحب استحضارها عند دراسة أية قضية في الأسرة.

كما أن العدل في الإسلام قيمة مطلقة تولى سبحانه تحديدها بين الناس، ووضع لها الشروط لتنظيم حياة البشر، وجعل لها أحكاماً ضابطة ليتمكن البشر من تطبيقها حسب ظروفهم دون الإخلال بها. وبطبيعة الحال فعندما يفقد معيار الحق والعدل، تخضع الرؤى والتصورات للهوى، وهذا يجعل الأمور تخضع للنسبية المطلقة حيث تدخل في إطاره المصالح الشخصية التي تخضع لكثير من المتغيرات الإنسانية. وتصبح المقاييس العرفية القائمة على الهوى مقياساً للحق، فيختل الميزان وتختل العدالة،^{٣٥} فتصبح المرأة -التي هي صنو الرجل وشريكته في مهمة الخلافة- أقل منه لأسباب يخلقها الناس لغايات محددة. وفي قضايا المرأة عامة وقضية النشوز خاصة كثيراً ما تظهر بذور متناثرة لذلك التوجه الخاضع للهوى.

النشوز

للنشوز صور وأسباب ومعالجات مختلفة ومتعددة، فالآيتان في سورة النساء تتحدثان عن قضيتين مختلفتين -كما سيظهر عند تحليل الأدلة- فالنشوز عموماً يحمل معاني كراهية أو استعلاء أحد الزوجين على الآخر. والآيات هنا تجيب عن تساؤلين مختلفين، وتعالج صورتين مختلفتين، وتوضح ذلك كالآتي:

في حالة نشوز الزوج في آية (النساء: ١٢٨-١٣٠) فهي إجابة عن سؤال أو حالة رجل كانت له زوجة، إلا أنها شعرت أن زوجها قد كرهها وأعرض عنها ولم يعد يصاحبها أو يداعبها أو يحادثها كما كان يفعل، وقد يكون هذا لأسباب مختلفة، فخشيت أن يطلقها وهي لا ترغب بالطلاق لأسباب خاصة بها، فماذا تفعل! كما روي عن عائشة في معنى الآية قالت: (هذا في المرأة تكون عند الرجل، فلعله لا يكون بمستكثر منها، ولا يكون لها ولد ويكون لها صحبة فنقول: لا تطلقتي وأنت في حل من شأنني) رواه البخاري.

فهنا قد يكون اختيار المرأة البقاء معه لظروف عسيرة تمر بها، أو قد لا تجد من يعيها، فتفضل البقاء مع زوجها الذي عرفته وألفت له يعيها أو يحميها من غير أن تطالبه بحقوقها في المعاشرة الزوجية ونحوها. وفي هذه الحالة لا يقع ظملاً على أي من الطرفين، حيث يتم وكأنه تعاقد جديد له شروطه الخاصة به. وعلى الرغم من قبول المرأة بالتنازل عن حقها إلا أن الله تعالى حذر الأزواج من الظلم في المعاملة وأن لا يتركها معلقة فتتألم الزوجة أو تتأذى. ولذلك منحها سبحانه الحق بالمطالبة بالفراق وقد يفتح الله لهما أبواب رزق أخرى.^٩

أما الحالة الثانية: آية النشوز في سورة النساء هي الجزء الأخير من آية القوامة، ولذلك فلا بد من استحضار المنظومة القيمية المتعلقة بالقوامة كي تفكك وتحلل معاني النشوز، ومن ثم يمكن القيام بعملية التركيب البنائي للمفهوم. تبدأ الآية بـ {... فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، إن الله كان علياً كبيراً} النساء: ٣٤، ولقد سبق بيان معاني المفاهيم التي طرحتها الآية (الصالحات) و(القانتات) و(الحافظات الغيب بما حفظ الله)، كذلك ما جاء عن المفاهيم الهيكلية للعلاقة الزوجية من المودة والرحمة والسكن، كما أنه من المهم الرجوع إلى تحليل مفهومي التفصيل والطاعة في ظل المنظومة القرآنية المتكاملة ومتوازنة الأطراف، فلا يمكن استيعاب معاني مفهوم قرآني بعيداً عن منظومته، وإلا أدى ذلك إلى الخطأ في الفهم والتحليل. فالمرأة الناشز هنا تستعلي وتستكبر على زوجها وكأن النشوز هنا في حالة يُخشى (يخاف) من وجود رجل آخر في حياتها تميل إليه وتفضله على زوجها.

وقد يظهر ذلك في تصرفاتها معه، حيث يتضح من السياق حين ذكر سبحانه صفات المرأة الصالحة والتي جعلها وكأنها قاعدة عامة متوقعة من النساء عموماً، ويبيّن حالة النشوز هنا وهي حالة استثنائية، ولقد بينت السنة النبوية نوعية التساؤل في هذه الآية وخاصة في الوسيلة التربوية المقترحة في خطبة حجة الوداع بتدرج يدعو إلى التفكير في نوعية عمل وتصرف المرأة الذي يتطلب هذا النوع من العقوبة، ولقد بينت سنة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته مع أهله وأزواجه والمؤمنين عامة أهمية معرفة أسباب النشوز "الذي يحمل معاني تكبر وغرور الزوجة وعدم طاعتها لزوجها" التي دفعت المرأة إلى هذه التصرفات؟ ولقد وضّحت السنة متى تستحق المرأة الناشز تلك العقوبة التدريجية المقترحة في القرآن الكريم في ما يلي:

أ- تميزت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيان الشافي في هذا المجال، عن عمرو بن الأحوص الجشمي رضي الله عنه؛ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يقول: بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ، ثم قال: "ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عنكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك؛ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً؛ ألا إن لكم على نساتكم حقاً، ولنساتكم عليكم حقاً؛ فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم من تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وإطعامهن" رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

ب- فذكر صلى الله عليه وسلم الأسلوب القرآني المقترح بكلماته (فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ..) وكان رسول الله صلى الله عليه يشرح من جهة السؤال الذي أجابت عنه آية سورة النساء (٣٤). وقال الشوكاني: وظاهر حديث الباب (أي الحديث السابق خطبة الوداع عن عمرو بن الأحوص) أنه لا يجوز الهجر في المضجع أو الضرب إلا إذا أتيت بفاحشة مبينة لا لسبب غير ذلك. وقد ورد النهي عن ضرب النساء مطلقاً... (لا تضربوا إماء الله ..)،^{٣٦} وقال الشيخ الدردير: ولا يجوز الضرب المبرح ولو علم أنها لا تترك النشوز إلا به، فإن وقع فلها التطبيق وعليه القصاص.^{٣٧}

^٩ ولأن تستطيغوا أن تعبلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تُصلحوا وتنفوا فإن الله كان عفواً رحيمًا، وإن يتفرقا يُغن الله كلًا من سعته وكان الله واسعاً حكيمًا - النساء: ١٢٩ - ١٣٠.

ويظهر في هذه الآية والله أعلم أن السؤال كان في حالة تخوف من سقوط المرأة في تكوين علاقة خارج الزواج نتيجة لبعض تصرفات الزوجة التي تركت الريبة في نفس الزوج، ويأمل الزوج هنا أنه قادر على نصيحتها وتذكيرها بالمعروف والنهي عن المنكر باتباع تلك الوسائل التربوية المقترحة من الله تعالى، ولو كان الزوج يعلم بخيانة زوجته لتغير حال السؤال وحال الإجابة كما سيرد في أحاديث أخرى.

ت- وقد فصل الشيخ محمد عبده معنى (تخافون) فقال: هذا ما يتبين في لفظة الخوف من النشوز وقد فسر البعض معنى الخوف من النشوز بتوقعه فقط، (أما البعض ففسره بالعلم به)،^{٢٨} ولكن قد يقال لم لم يستخدم لفظ العلم واستبدل به لفظ الخوف؟ أولم لم يقل واللاتي ينشزن؟^{٢٩}

فيجيب الشيخ محمد عبده: "أن في التعبير القرآني حكمة لطيفة وهي أن الله تعالى لما يجب أن تكون المعيشة الزوجية معيشة محبة ومودة وتراض والتنام لم يشأ أن يسند النشوز إلى النساء إسنادا يدل على أن من شأنه يقع منهن فعلا، بل أكد أن من شأنه أن لا يقع، لأنه خروج عن الأصل الذي تقوم عليه الفطرة وتطيب به المعيشة، ففي هذا التعبير تنبيه لطيف إلى مكانة المرأة وما هو الأولى في شأنها وإلى ما يجب على الرجل (عموما كأب أو أخ أو زوج..) من السياسة لها وحسن التلطف في معاملتها، حتى إذا آتس منها ما يخشى أن يؤول إلى الترفع وعدم القيام بحقوق الزوجية فعليه أولاً أن يبدأ بالوعظ الذي يرى أنه يؤثر في نفسها"^{٤٠}

ج- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ضرب أي من نسائه قط لأي سبب من الأسباب، بل حتى عندما اتهمت السيدة عائشة في حادثة الإفك وطالت مدة انتظار الوحي ولم يكن الأمر يقينا بالنسبة له وكانت هي من تملك معرفة الحقيقة فما لجأ إلى تعنيفها ناهيك عن ضربها.^{٤١} وهذا يعكس منع استخدام العنف مع الزوجة حتى في أقصى الحالات كالاتهام بالزنا، وإنما نزل الحل القرآني بحكم الملاعة بين الزوجين، وهذا يعني انتهاء العلاقة الزوجية بينهما سلمياً بعد الوقوف بين يدي القاضي ويذهب كل منهما إلى طريقه.

ح- ورد في السنن والمسند: عن معاوية بن حيدة القشيري، أنه قال: يارسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه؟ قال: "أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه ولا تقبح؛ ولا تهجر إلا في البيت." وروى النسائي وأبو داود وابن ماجه: قال النبي صلى الله عليه وسلم "لا تضربوا إماء الله" فجاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله عليه وسلم، فقال: ذُرت النساء على أزواجهن! فرخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بضربهن. فأطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشتكين أزواجهن! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لقد أطاف بآل محمد صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشتكين من أزواجهن... ليس أولئك بخياركم."^{٤٠}

إن هذه الحادثة إن كانت تدل على شيء فهي تدل على صدمة التغيير الكبير التي حدثت نتيجة التشريعات الجديدة على البيئة آنذاك غير المألوفة من قبل كلا الجنسين، فلم تعد المرأة التي منحت كل هذه الحقوق تقبل لنفسها أن تضرب أو تهان من قبل زوجها الذي تعود على التعامل معها بأسلوبه التربوي بضربها وتقبيحها، ثم يأتي هذا الدين الذي آمنوا به جميعاً ليغير من أسلوب التوجيه والتربية بين عشية وضحاها، فمن الطبيعي جداً أن يحدث كل هذا الاضطراب في المجتمع.

وقد تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكمة بالغة في احتواء الموقف ليعيد للمجتمع توازنه دون التفريط بحقوق النساء، وهكذا خاطب الرجال بقوله "ليس أولئك خياركم." إنها التربية النبوية للمجتمع الناشئ بجميع فئاته وعملية التدريب ليتوازن مع التشريعات الجديدة في أقصر مدة ممكنة وفي أتمن حال.

خ- ونذكر أقوال وأفعال رسول الله صلى الله عليه وسلم مع زوجاته بالرغم من تعرضه معهن إلى أنواع من المخاصمة ولكنه لم يضرب قط، بل قال صلى الله عليه وسلم "لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها

٥٨ روي هذا الحديث بروايات عديدة منها: سنن ابن ماجه، النكاح، رقم الحديث: ١٩٧٥.

آخر، أو قال غيره" رواه مسلم،^{١١} وحذر من الضرب وقبح فعل كل من يلجأ إلى الضرب فقال "لا يضرب أحدكم أمرته كالعير يجلدها أول النهار، ثم يضاجعها آخره".^{١٢} كما اعتبره ضعفاً وسوء توجيه وتدبير؛ وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده ولا امرأة ولا خادماً إلا أن يجاهد في سبيل الله وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله فينتقم الله عز وجل" رواه مسلم.^{١٣}

يرسم هذا الحديث منهجاً دقيقاً في التعامل مع الخلافات الزوجية من خلال الموعظة والتناصح بالمعروف، ولم يلجأ قط لاستعمال العنف أو الإهانة والتجريح على الرغم من تعرضه صلى الله عليه وسلم لخلافات زوجية. فقد تأمرت عليه زوجاته يطالبينه بزيادة النفقة، وأقصى ما قام به هو الهجر في المضجع لمدة شهر كامل. أما موقفه مع السيدة عائشة التي اتهمت بأبشع تهمة يمكن أن تنته بها امرأة فلم يفعل أكثر من التذكير والصبر، فلم يعنفها قط. وهكذا كانت سنته صلى الله عليه وسلم عند حدوث خلافات زوجية، فلو كان الضرب مستحباً أو مأموراً به لما تأخر في تنفيذه، وإنما حذر وعفف من يستخدمه كوسيلة لحل الخلافات.

د- أما إذا زاد الشقاق بين الطرفين وكان الطرف الآخر في الإدارة وهو "الزوج" يحمل بذور الخلل والاضطراب ولا يملك الحكمة في معالجة الأمور، وخشي انهيار المؤسسة فيتم اللجوء إلى المعالجة الأخيرة قبل إعلان فسخ الشركة، وهي اللجوء إلى حكمين من جهة كل من الطرفين لمحاولة الإصلاح بينهما بالعدل، وذلك بأن يذكر الطرفان بتقوى الله وبأهمية العشرة الحسنة وعدم تناسي الفضل بينهما... الخ. فإن تمت المحاولات اللازمة ولم يتم الصلح، انفكت عرى العلاقة لتنتهي بالطلاق ولكنه محكوم بالعدل لكلا الطرفين وخاصة للمرأة، فقد قال تعالى { وإن اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتهم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً. وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً } النساء: ٢٠-٢١.

الشورى: ممارسة حضارية ومنهج نبوي

فرض القرآن الكريم مبدأ التشاور الشامل والتناصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساساً لكيان المجتمع وتضامنه ونظامه، ليجعل التشاور وتبادل الآراء قاعدة للتضامن في الفكر والرأي بين الأفراد والجماعات. فهي تحفظ التوازن في العلاقات ولا تدع مجالاً للطاعة العمياء. فالشورى تكريم للإنسانية وترشيد للجماعة، {والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} الشورى: ٣٨ {وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} آل عمران: ١٠٤.

فهذه هي الخصائص العامة لأعضاء الأمة في أدوارهم المختلفة، أما تطبيق مبدأ الشورى في إطار العلاقة الزوجية فقد أكدت عليه آية الرضاع في حالة الطلاق، والتي دعت الوالدين إلى التشاور بينهما في اختيار الأفضل لولدهما، فإذا كان التشاور مطلوب في حالة الطلاق، فهو في الزواج أولى، وكأنه من المتوقع أن الزوجين قد ألفا التشاور بينهما حيث يستمر تطبيق التشاور بينهما حتى في حالة الطلاق.^{١٤}

ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى لأصحابه وللعالمين في هذا الأمر. فهذا هو عمر بن الخطاب يصف حالة التغيير ويجعل من نفسه مثلاً في ذلك فيقول: "... والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم." وفي رواية^{١٥}: "كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً، فلما جاء الإسلام وذكرهن الله، رأينا لهن بذلك علينا حقاً، من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا" وفي رواية أخرى^{١٦}: "كنا معشر قريش

٥٩ صحيح مسلم، الرضاع، رقم الحديث: ٢٦٧٢.

٦٠ روي الحديث في الصحيحين وفي كتب السنن. البخاري، تفسير القرآن، رقم الحديث: ٤٥٦١، سنن ابن ماجه، النكاح، باب: ضرب النساء، رقم الحديث: ١٩٧٣.

٦١ صحيح مسلم، الفضائل، رقم الحديث: ٤٢٩٦.

٦٢ (أحلَّ لكم ليلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَّتْ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَّاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ) البقرة: ٢٣٣

غلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا يقوم تغلبهم نساءؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار". قال عمر: فيينا أنا في أمر أتأمره إذ قالت أمرأتي: لو صنعت كذا وكذا، فقلت لها: مالك ولها هنا! فيما تكلفك في أمر أريده! عجباً لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان.^{٤٤}

وهذا ما جاء في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حول توظيفه الحوار والمشاورة مع أهل بيته من زوجاته وبناته وعلاقاته بالمؤمنين في مختلف الأدوار، فكانت علاقاته محكومة بالقيم العليا في تطبيق معاني العدل والمساواة والحرية. لقد لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشورى في كل أحواله وأدواره، ودرّب أصحابه وأهل بيته نساءً ورجالاً، صغاراً وكباراً على توظيفها في جميع الأحوال والأدوار كونها وسيلة فعالة في تنمية وتطوير جميع مراكز ومؤسسات الأمة ابتداءً من الأسرة في معالجة القضايا المطروحة على مختلف المستويات ولمختلف الأغراض.

لم يستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أي حالة من الأحوال القسوة والشدة كوسيلة تربوية في التعامل، ومما يؤكد هذا ما جاء في موقفه عليه الصلاة والسلام عندما اجتمعت زوجاته عليه لمطالبته بزيادة النفقة.^{١٥} وبالرغم من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم له حق الطاعة وورد ذلك في آيات عديدة {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْتَرُوا^{١٦} فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَمَّا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} المائدة: ٩٢، ولكنه لم يفرض رأيه على واحدة من زوجاته بالقوة، إنما منحهن حق التخيّر بين البقاء وتحمل أعباء مسؤولية بيت النبوة، أو الفراق بالحسنى والمعروف، وقد سجّل القرآن الكريم هذا الموقف {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكِ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمِّيَعُنَّ وَأَسْرَحُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا} الأحزاب: ٢٨، ولذلك قام صلى الله عليه وسلم بتخييرهن فأجبن جميعاً بالبقاء معه صلى الله عليه وسلم.

الطلاق وتحقيق مقصد التسريح بإحسان

أباح الإسلام الطلاق وجعله أبغض الحلال عند الله، فهو الحل النهائي بعد استنفاد جميع وسائل الصلح والاصلاح بين الزوجين في إنقاذ مؤسسة الأسرة من الانحلال.

وينبثق نظام الطلاق في الإسلام من منظوره التوحيدي القائم على التوازن بين الفردي والجماعي وبين المادي والمعنوي بشكل يمنح الأحكام الشرعية صرامة ودقة مصحوبة بمرونة وقدرة على التكيف مع اختلاف الأحوال. وبذلك يتحول نظام الطلاق إلى سبيل سلمي لانحلال مؤسسة الأسرة عندما يفتقد الزوجان القدرة على إقامة حدود الله، ولكنه بالعمل على تحقيق مقصد التسريح بإحسان يبقى على أصرة النسب والصهر ويحفظ تلك العلاقات التي تكونت نتيجة علاقة الزواج حتى وإن تفككت بين الزوجين، ولكن الإسلام لم يفرط بالعلاقات الإنسانية التي تكونت بسبب ذلك الزواج. ولذلك حرص على أن يكون الفراق بإحسان.

ولا يكتفي الإسلام بذلك وإنما يفتح للمطلقين آفاقاً تمنحهم القدرة على الاستفادة من تجربتهما السابقة إيجابياً، وذلك بإباحة الزواج للرجل والمرأة المطلقين ومنحهما الحق في تكوين أسر جديدة يحسنون فيها اختيار الشركاء الذين يتبنون مراعاة حدود الله. ويفتح آفاقاً لعلاقات إنسانية أخرى تتوسع من خلالها شبكات من العلاقات. وهذا لا يعني أن جميع المسلمين اليوم يطبقون ما جاءت به تعاليم القرآن المجيد وتطبيقات النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، بل إن الممارسة العملية اليوم تختلف عن تعاليم الوحي، وسيوضح ذلك في هذه الدراسة.

^{١٥} لقد رويت الحادثة في كتب السنن جميعاً وقد جاءت في صحيح مسلم: أخبرني عبيد بن حنين أنه سمع بن عباس يحدث قال: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبه له.

تعريف الطلاق

هو تسريح بإحسان بمعنى فك عقد الزواج، وهو السبيل الإيجابي لفك النزاع بسلام، وحل مؤسسة الأسرة بين طرفيها - الزوجين - بأقل خسائر ممكنة من خلال أحكام وقوانين صيغت لحماية جميع أفراد المؤسسة عند استحالة استمرار العشرة وإقامة حدود الله؛ قال تعالى (وَإِنْ يَفْرَقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا) النساء: ١٣٠. ويعد نظام الطلاق في الإسلام نموذجاً متميزاً في فك الخلافات بين الناس^{٤٥}، يمكن من خلال أحكامه الكشف عن أبعاد مهمة في حل النزاعات سلمياً على مختلف المستويات، حيث أنه مبني على مبادئ العفو والإحسان والإصلاح والمعروف ونحوها لإنهاء العلاقة بسلام.

لقد أقيمت علاقة الزواج على اتفاق بين الزوجين لبناء مؤسسة الأسرة على أساس إقامة حدود الله ومراعاة أوامره، ولا تنفك إلا لذلك، فيكون الزوج قاصداً للطلاق من غير غضب ولا عناداً، حيث لم تتكرر عبارة (أن يقيما حدود الله) مثل ما تكررت في آيات الطلاق، وكأنها تأكيد على أن نظام الطلاق محكوم بأوامر الله فلا يستطيع أحد التلاعب فيه. ولذلك فعندما يصعب على الزوجين أداء ما اتفقا عليه من إقامة لحدود الله، تولت الشريعة صياغة العديد من الأحكام لحماية هذه العلاقة وانحلال المؤسسة بسلام، من غير أن تخلف إجراءات "الانحلال" مشاعر سلبية تؤثر على بنية علاقات الصهر.

واليوم اختلفت حقيقة واقع الأسرة المسلمة عن التعاليم القرآنية، فما أن يقع الطلاق أو الشقاق بين الزوجين حتى تتحول إلى حرب قاسية تغيب فيها العديد من القيم التي أكد عليها القرآن الكريم من الفضل والإحسان والمعروف. وقد نجد هذا المقصد قد عُيِبَ بشكل أو بآخر في بعض المحاكم العربية والإسلامية بقوانينها التي سنتها في موضوع الطلاق.^{٤٦}

وأهم المقاصد التي تعد في إطار الضرورات في مسألة الطلاق هي منع الظلم وتحقيق العدل لإنهاء العلاقة بسلام ورحمة، لا بحقد وكراهية. فمقصد المحافظة على علاقة الأخوة بين المؤمنين والمؤمنات وارد في تصرفات الشارع في كل علاقة وخاصة في الطلاق، لما قد يثير من مشاعر سلبية تؤدي إلى العداوة والبغضاء. ولذلك حدد وسائل تساعد على إقامة العدل للخروج من تجربة الطلاق بسلام، ومن أهم الوسائل لتحقيق هذا المقصد:

١. توثيق عقد الطلاق والإشهاد عليه كما روي أن عمر بن الخطاب سئل عن رجل يطلق امرأته ثم يبع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجوعها فقال عمر إن طلقك بغير سنة وراجعت بغير سنة أشهد على طلاقها وعلى رجوعها.^{٤٧}

٢. توضيح مسؤوليات وحقوق كل طرف بدقة كي لا يُظلم ولد أو امرأة أو رجل في هذه المعادلة المعقدة.

٣. اهتم القرآن الكريم بتحديد كل مسألة بتفصيل دقيق، فحدد عدد الطلاقات، ومراعاة حالة الإنسان النفسية والعقلية في حالة التلظظ بالطلاق، ووقت وقوعه، وأنواع الطلاق ١٦، وعدة المطلقة ومقاصدها، والحقوق والمسؤوليات المادية والمعنوية الواقعة على عاتق كل طرف في القضية. ولم تكف أحكام الشريعة بذلك، بل وضعت عدة ضوابط لتحقيق العدل وحفظ حق المرأة، فشرعت طلاق السنة وحرمت طلاق البدعة^{٤٨}.

^{٤٥} وفصل القرآن الكريم نوعية الطلاق وحقوق الزوجة المادية والمعنوية على زوجها. فإذا كان طلاقاً بعد الدخول: قال تعالى: (الطلاق) مَرَّاناً فَامْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا جُنَاحَ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة: ٢٢٩. أما إذا كان قبل الدخول وبعد الاتفاق على المهر: (وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فِيمَنْ مَأْ فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بَيْنَهُنَّ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) البقرة: ٢٣٧. أما إذا حصل الطلاق قبل تحديد المهر أي (الخطوبة فقط) فقال تعالى: (لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرَضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعْتُمُوهُنَّ عَلَى الْمُوسَعِ فَنَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ) البقرة: ٢٣٦.

^{٤٦} عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عمر بن الخطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم إن شاء أمسك بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء" صحيح البخاري، مرجع سابق. كتاب الطلاق، ٤٨٥.

وطلاق السنة أن يطلق الزوج طليقة واحدة في طهر لم يدخل بها فيه ولا في الحيض قبله، وإلا يطلقها إلا طليقة واحدة رجعية في الطهر الواحد ويتركها حتى تنتهي عدتها. ٤٨

٤. جعل كل من يبدأ بحل مؤسسة الأسرة سواء كان الزوج أو الزوجة مسؤولاً عن تحمل أعباء الطلاق المادية. ولقد راعى سبحانه تنظيم الجانب المادي للحفاظ على العدل بين الإثنين، فلا يطغى أحدهما على الآخر لأن الظلم من أهم العوامل التي تستثير الأحقاد والأضغان، (أَسْكُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأَمْرُهُمْ بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَنْ رَضِعْ لَهُ أُخْرَىٰ، لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) الطلاق: ٦-٧.

٥. لتحقيق العدل في إطار المحافظة على أصرة النسب والصهر، حدد أحكام النفقة والحضانة والرضاعة وجعل الشورى طريقاً إيجابياً لحل القضايا المتعلقة كي تنحل مؤسسة الزواج بأقل الخسائر، وعلى الرغم من هذا فقد جعل الطلاق أبغض الحلال عند الله، وآخر الحلول.

٦. وتوضح أهمية تحقيق العدل ومنع الظلم في إجراءات الطلاق وإيقاعه، ففي ختام آيات سورة الطلاق، حيث أكدت الآيات في سياقها، تحذير الجماعة المؤمنة -وليس الزوجين فحسب- من وقوع الظلم على أي طرف، وأن حدوث أي نوع من أنواع الظلم يستدعي تدخل الجماعة ومنع الظلم والأمر بالمعروف وإحقاق العدل. ١٨.

وسائل لتحقيق مقصد التسريح بإحسان:

١. جعل القرآن الكريم تقوية الرابطة الإيمانية مع الله وتنمية معاني تقوى الله لكلا الطرفين وسيلة مهمة في تحصيل الأمن النفسي في تلك الظروف العصبية^{١٨}، وجعل تفعيل هذه الرابطة من خلال أداء الصلاة كوسيلة للتخلص من المشاعر السلبية، فذكر الصلاة في وسط آيات الطلاق (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) البقرة: ٢٣٨.

٢. منع التعسف في استعمال الحق. فيمنع الزوج من التعسف في استعمال حقه في الطلاق بتقوية علاقته مع الله، وتوعية المسلم بما أوجبه الله تعالى من حسن المعاشرة وإشاعة معاني الإسلام ومقاصده العامة في الزواج، وتذكير الزوج أنه سيحاسب على التعسف في استعمال حقه في الطلاق بدون مبرر شرعي ملحقاً الأذى والضرر بزوجه كما جاء في قوله تعالى (وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) البقرة: ٢٣١ كما بين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (لا ضرر ولا ضرار)، وتذكير الزوجات كذلك بما لهن وما عليهن.

٣. من وسائل تحقيق مقصد التسريح بإحسان مشروعية الخلع وهو حق المرأة في طلب الطلاق^{٢٠}، وهو طلاق بائن، ويقع في الطهر والحيض وعليه عدة قرء أو شهر واحد. وقد جاء النص على مشروعيته في

^{١٨} آيات سورة الطلاق من ٨-١٢.

^{١٩} قال سبحانه (وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا، مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ لِلذَّيْنِ ظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أَمْهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ، ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاخْرُجُوا فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا) الطلاق: ٢-٥.

^{٢٠} أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: ثابت بن قيس ما أعيب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتدبين عليه حديثه؟ قالت: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقبل الحديثة وطلقها تطليقة".

قوله تعالى: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَمَا مَسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۚ فَإِنْ حَقَّتْ مَحْضُورَاتُ الْأَقْرَبِينَ مِنْهُمَا بِمَا آتَيْتُمُوهُنَّ مِنَ اللَّهِ فَلَا تَنْعَدُوهُنَّ مَا تَعْتَدُونَ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة: ٢٢٩. وقال تعالى في حالة أخرى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَكَحُّمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعَهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا) الأحزاب: ٤٩. وبما أنه لا عدة عليها فلا حق له بالمراجعة. أما السنة: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ "أَنَّ امْرَأَةً تَابِتُ بِنُ قَيْسٍ أَنْتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ تَابِتُ بِنُ قَيْسٍ مَا أُعْتِبُ عَلَيْهِ فِي خُلُقٍ وَلَا دِينٍ وَلَكِنِّي أَكْرَهُ الْكُفْرَ فِي الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتُرَدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيثَهُ قَالَتْ نَعَمْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْبَلِ الْحَدِيثَ وَطَلِّقِيهَا تَطْلِيقًا." ٢١ في هذه الحادثة تتبين الحكمة من مشروعية الخلع في إزالة الضرر عن المرأة سواء كان معنويًا أو ماديًا. قال ابن قدامة: "والخلع لإزالة الضرر الذي يلحقها بسوء العشرة والمقام مع من تكرهه وتبغضه." ٤٩

٤. ومن صور تحقيق مقصد التسريح بإحسان الطلاق للعيوب^{٥٠}، أو السجن أو الملاعنة، أو التضرر بسبب الغيبة الطويلة، والطلاق للضرر بسبب الإيذاء بالقول أو الفعل بما لا يليق بأمثالها. وهو ما يطلق عليه **بالعنف الأسري**^{٥١} والذي يكاد يكون السبب الأساسي للعديد من حالات الطلاق في كل بلاد العالم اليوم. وتناول القرآن الكريم طرحه وقدم فيه معالجاته، وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال ممارساته وتطبيقاته في الحفاظ على العلاقات الإنسانية في إطار الأسرة، والتأكيد على الجانب التربوي الإيجابي في توظيف الموعظة وهي الحوار بين الأطراف المتنازعة والذي يتسم بالعقلانية والاحترام في تحاور هادئ يسمح لجميع الأطراف بممارسة حرية التعبير عن آرائهم ومشاعرهم مع احترام الآخرين، وممارسة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا النوع من التحاور في فض النزاعات على مستوى الأسرة والجماعة وغيرها من دوائر النزاع.

الخاتمة

استهدفت هذه الدراسة تقديم النموذج القرآني للأسرة، والذي يؤكد على أهمية دراسة الأسرة بشكل كلي يساعد على فهم مختلف الأحكام والعلاقات الإنسانية بشكل صحيح. لقد أسىء فهم الإسلام في العديد من الموضوعات وخاصة في قضايا المرأة، وتبين هذه الدراسة أن القراءة الكلية للنموذج القرآني لمختلف المفاهيم والقيم مثل القوامة والدرجة والنشور وغيرها يساعد على توضيح المعنى الصحيح لها. أما القراءة التبعية فلا تؤدي إلا إلى إساءة الفهم والتفعيل للمسلمين وغيرهم. إن إساءة فهم العديد من المفاهيم المتعلقة بالأسرة في الإسلام أدى في بعض الأحيان إلى العنف الأسري وغياب المودة والرحمة من الأسرة، والتي جعلها القرآن الكريم من أهم المقاصد الأسرية. ولذلك لا بد من الاستقراء الكلي في كل قضايا الأسرة.

^{٢١} صحيح البخاري. مرجع سابق، كتاب الطلاق، رقم الحديث: ٤٨٦٧.

العنف الأسري في السودان: الكشف عن المستور

البروفسور عوض محمد أحمد^{٢٢}

الملخص

نهدف في هذا الفصل إلى التحقيق في مشكلة العنف الأسري في الأسر السودانية من حيث انتشارها وأنواعها والعوامل التي تؤثر في وقوعها. وتشمل العينة نساء متزوجات ارتدن عيادة مستشفى جامعة الرباط في الخرطوم – السودان خلال شهر نيسان/أبريل ٢٠٠٦. ومن خلال استبيان مفصل، تم الطلب من كل امرأة مشاركة تقديم البيانات التالية: الخصائص الاجتماعية السكانية، وإن كان زوجها قد أساء إليها بأي شكل في الأشهر الثلاثة الماضية، والظروف المباشرة المستخدمة كذريعة للعنف، ورد فعلها على الإساءة، وإن كانت قد تعرضت للأذى قبل الزواج أو خلال الحمل. ومن بين ٢٥٤ امرأة تم الاتصال بهن وافقت ١٤٦ امرأة على المشاركة في الدراسة وقدمن نسبة إجابة وصلت ٥٧,٤٪. من بين هذه النسبة، ٦٧ كن يتعرضن للإساءة، مما يجعل نسبة وقوع العنف الأسري ٤٥,٨٪.

تم اعتبار النساء اللواتي لم يتعرضن للعنف أو الإساءة (٧٩ امرأة) المجموعة الضابطة في الدراسة. أما النساء اللواتي تعرضن لسوء المعاملة فقد تراوح معدل أعمارهن من كان متوسط العمر في المجموعة ٢٥ سنة ومتوسط فترة الزواج ٥ سنوات منهن ٥٢ (٧٧,٦٪). يُعتبرن فقيرات. وقد تعرضت هؤلاء النساء البالغ عددهن ٦٧ إلى ما مجموعه ١٢٣ حالة عنف جسدي في الأشهر الثلاثة الماضية، ومعظمهن يتعرضن لسلوكيات السيطرة والتهديد بشكل معتاد ومتكرر، بينما ذكرت ثماني نساء منهم (١١,٩٪) أنهن تعرضن للعنف خلال الحمل. وكان من بين الظروف المباشرة المستخدمة كذريعة للعنف الشك بتورط الزوجة في علاقات غير مشروعة والتطاول على الزوج في الكلام وعدم العناية بالمنزل كما يجب. أما ردود الفعل الشائعة بين النساء المعرضات للإساءة فتراوحت بين التزام الصمت (٢٥ امرأة، ٣٧,٣٪) والبكاء (١٩ امرأة، ٢٨,٣٪) والمقاومة (١٢ امرأة، ١٧,٩٪). إن العنف الأسري مشكلة شائعة في المجتمع السوداني. ويناقش المؤلف فيما يلي تدابير مكافحتها، والتي يتشاركها أخصائي الصحة وغيرهم من السلطات المعنية.

تمهيد

تقليدياً، تعاني السودانيات من الكثير من المشاكل الاجتماعية مثل الفقر، والامية أو تدني المستوى التعليمي، والختان. ومؤخراً ومع الارتفاع النسبي في معدلات تعليم المرأة وزيادة الوعي بحقوقهن الإنسانية الأساسية، استقطبت مشكلة العنف ضد المرأة الاهتمام العام. ويعزز من ذلك تزايد ورود تقارير حول الادعاء بوجود حالات اغتصاب وغيرها من جرائم الحرب ضد المرأة في مناطق الحرب الأهلية في دارفور.

والعنف الأسري هو نمط من السلوكيات والاتجاهات التسلطية المكتسبة تدعمها معتقدات ثقافية. وقد عرّف العديد من الأفراد والمجموعات العنف الأسري ليشمل كل شيء من التفوه بكلمات قاسية أو مهينة، إلى جذب ذراع أحدهم، إلى الضرب أو الركل أو الخنق أو القتل. وهو يحدث في كل المجموعات العرقية والاجتماعية الاقتصادية والإثنية والدينية، مع أن ظروفها مثل الفقر وتعاطي الكحول والمخدرات والأمراض النفسية قد تزيد فرص حدوثه. ويشكل العنف ضد المرأة عائقاً أمام تحقيق أهداف المساواة والتنمية والسلام، كما ينتهك ويعيق أو يلغي قدرة النساء على التمتع بحقوقهن الإنسانية وحياتهن الجهرية. ويمكن في العلاقات الزوجية التي تنسم بالعنف الأسري، أن يتفاقم الوضع أحياناً إن كان أحد الشريكين يعاني من مرض نفسي أو سجل جنائي. وفي حين كان العنف الأسري فيما مضى وعلى مستوى العالم من أقل الجرائم المبلغ عنها، إلا أن الوعي بوجوده ازداد وبشكل واسع خلال الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين. فخلال تلك الفترة، أخذت مؤسسات تطبيق القانون وأخصائيو الصحة النفسية

^{٢٢} البروفسور عوض محمد أحمد هو بروفسور في الطب في جامعة بحري.

بمحاولة فهم والتعرف على حدة المشكلة وتعقيدها وانتشارها. لكن السوء هو أن المجتمع الطبي والمجتمع العام ما زال لا ينظران إلى العنف الأسري باعتباره مشكلة صحة عامة خطيرة. نحن كأخصائيين في مجال الطب نشعر أن العنف الأسري ليس مشكلة نادرة الحدوث بين مرضانا. لذلك قررنا وفي ذهننا هذه المسائل أن نجري تحقيقاً حول نسب حدوث وحجم العنف الأسري بين مجموعات النساء اللاتي يرتدن العيادات الخارجية في واحدة من مستشفياتنا.

المقدمة

تعرف منظمة الصحة العالمية العنف بأنه " الاستخدام المتعمد للقوة البدنية الفعلية أو التهديد باستخدامها ضد الذات أو ضد شخص آخر أو ضد مجموعة من الأشخاص أو المجتمع ككل مما يسفر عن وقوع إصابات أو وفيات، أو إيذاء نفسي أو سوء نمو أو حرمان"^١. وينقسم العنف إلى ثلاث فئات: العنف الموجه نحو الذات والعنف بين الأشخاص والعنف الجماعي. ينقسم العنف بين الأشخاص إلى فئتين فرعيتين هما: العنف الأسري أو المنزلي، والعنف المجتمعي (العنف بين أفراد قد لا يكون بينهم سابق معرفة)^٢. ويمكن لفعل العنف أن يكون بديناً أو جنسياً أو نفسياً أو ينطوي على حرمان أو إهمال^٣. هذا الفصل يختص بالعنف الأسري.

ويُعرف العنف الأسري بأنه العنف الموجه ضد المرأة من قبل أحد أفراد الأسرة (غالباً ما يكون الزوج أو الشريك الذكر الحميم)^٤. ويمكن اعتباره نمطاً من أنماط الإكراه النفسي والاقتصادي والجنسي يمارس على شريك في علاقة حميمية من قبل الشريك الآخر يتخلله اعتداءات بدنية أو تهديدات فعلية بالحقاق الأذى البدني^٥. والعنف الأسري ظاهرة قديمة تنتشر في العديد من المجتمعات وغالباً ما يشير إلى العنف بين الزوجين مع أنه يشير أحياناً إلى العنف ضد أفراد آخرين في الأسرة مثل الأطفال والأقارب كبار السن. وللعنف الأسري تبعات خطيرة على صحة النساء المساء إليهن ورفاههن الاجتماعي، فهو يؤثر سلباً على تقديرهن لذاتهن، مما يجعلهن عرضة لاضطرابات بدنية ونفسية طويلة الأمد. وبالإضافة إلى الإصابات البدنية مثل الحروق والكسور والجروح، تميل الضحايا في العادة إلى الشكوى من مشاكل مزمنة غير مفسرة، مثل آلام الظهر والرأس^٦. أما نفسياً، فتميل النساء المساء إليهن إلى الإصابة بمعدلات مرتفعة من الاكتئاب، ومنهن حتى من حاولت الانتحار. من جهتها، ليست الصحة النفسية معفاة من الآثار الضارة للعنف الأسري الذي يؤدي إلى حالات مثل الإجهاد والحمل غير المقصود ونقص الوزن عند الولادة والأمراض المتناقلة جنسياً، بما فيها الإيدز^٧. لكن ليست النساء وحدهن ضحايا العنف الأسري، فحوالي عشرة ملايين طفل حول العالم يتعرضون لشكل من أشكال الإساءة أثناء تعرض أمهاتهم للاعتداء سواء عمداً أم لا^٨. وقد يعاني الأطفال أيضاً من صدمات عاطفية أو مشاكل سلوكية – مثل اضطرابات النوم والتبول اللاإرادي وتعاطي العقاقير – نتيجة لما يشهده من إساءة^٩.

هناك ثلاثة أنواع من العنف التي تحدث في الأطر الأسرية: بدني، وجنسي، ونفسي أو عاطفي. العنف الجسدي هو الاستخدام المقصود للقوة البدنية بما قد يؤدي إلى أذى أو إصابة أو إعاقة أو موت، مثل الضرب أو الدفع أو العض أو استخدام أسلحة. أما العنف الجنسي فهو استخدام القوة لإجبار أحدهم على ممارسة فعل جنسي، أو محاولة إكمال فعل جنسي مع شخص غير قادر على فهم طبيعة الفعل أو ظروفه. من ناحيته، العنف النفسي أو العاطفي هو صدمة تصيب الضحية بسبب أفعال أو التهديد بارتكاب أفعال أو استخدام أساليب قسرية، وقد يشتمل على إهانة الضحية، والتحكم بما يمكن للضحية القيام به أو عدم القيام به، وحجب معلومات عن الضحية، والتعمد بالقيام بأمر لجعل الضحية تشعر بالإحراج أو الصغار، وعزل الضحية عن الأصدقاء والعائلة، ومنع الضحية من الوصول إلى المال أو غيره من الموارد الأساسية.

العنف ضد المرأة هو محصلة لعدة عوامل على مستويات مختلفة، الفردي والأسري والمجتمعي والاجتماعي. ٦١ فعلى المستوى الفردي، تتضمن هذه العوامل تعرض المرأة للإساءة كطفلة، والعيش مع العنف في المنزل، الأب الغائب أو الراض لها، والتعاطي المفرط للكحول. وعلى مستوى الأسرة، تُعتبر النزاعات الزوجية والهيمنة الذكورية الطاغية على الثروة ومسائل الأسرة من العوامل القوية للتنبؤ بالإساءة. ٦٢ وعلى المستوى المجتمعي

والاجتماعي، من العوامل التي تتداخل فيما بينها لتنتج العنف، الفقر، والبطالة، وغياب الدعم، وعزلة الأسرة والنساء، وربط مفهوم الذكورة بالشرف أو الهيمنة الذكورية، وتقبل العنف كوسيلة لحل النزاعات، والتسامح الاجتماعي مع العقاب البدني للنساء. ٦٣ ومن الممكن للعنف أن ينبثق عن عادات مقبولة اجتماعياً فيما يتعلق بالذكر أو الأنثى، فالرجال في بعض الأسر هم سادة المنزل (ومنهم من يعتبر أنه يمتلك المرأة!) لأنهم يعيلون الأسرة مالياً، وفي هذه الحالة يتوقع من النساء رعاية المنزل والأطفال وطاعة أزواجهن. وأي خروج من المرأة عن دورها أو تحدّ لما يعتقد الزوج أنها حقوق له قد يؤدي إلى عنف.

لا يميّز العنف الأسري على النساء بين الطبقات الاجتماعية والمجموعات الإثنية وتشهده كل من الدول النامية والمتقدمة. فعلى مستوى العالم، تتأثر به ما نسبته ٢٠-٥٠٪ من النساء بالعنف الأسري في مرحلة ما من حياتهن في معظم المجتمعات التي تم دراستها^{٦٤}. ففي المملكة المتحدة، ٢٣٪ من النساء في الفئة العمرية ١٦-٥٠ سنة تعرّضن لاعتداء جسدي على يد شريك حالي أو سابق، وتعرض اثنتان من النساء للقتل أسبوعياً^{٦٥}. كما نرى نسباً مشابهة في العديد من الدول الغربية.

أما في الدول الإسلامية والأفريقية، فتشير الدراسات إلى نسب مشابهة أو أعلى من الاعتداء على النساء. ففي مصر، تشير الدراسات إلى أن نسبة انتشار العنف الأسري تصل إلى ٢٢٪، كما أن ٢,٥٪ من الضحايا أفدن أنهم حاولن الانتحار كرد فعل على ما يتعرضن له من إساءة^{٦٦}. وفي تركيا، أشارت دراسة أجريت على نساء يرتدن مركزاً صحياً إلى أن نسبة انتشار العنف الأسري تصل إلى ٥٨٪. وكان الشريك الذكر المسيء الرئيسي، تليه الأم و/أو الأب^{٦٧}. في بنغلادش، وُجد أن نسبة انتشار العنف الأسري تصل إلى ٤٠٪ في المناطق الحضرية والنائية^{٦٨}، وأنه سبب رئيسي لوفيات الأمهات^{٦٩}، حيث يرتبط العنف الأسري هناك تحديداً بالمهر وغيرها من متطلبات الزواج^{٧٠}. في نيجيريا، وصلت نسبة انتشار العنف الأسري إلى ٣١٪ في عينة تتألف من ٤٣٠ امرأة^{٧١}، وكان من بين العوامل المرتبطة بالعنف الأسري في الدراسة النيجيرية تعاطي الكحول وصغر سن الزوجة. في أوغندا، كشفت دراسة أجريت على ٥٠٠٠ امرأة أن نسبة انتشار العنف الأسري وصلت إلى ٣٠٪، وأن تعاطي الكحول هو أكثر عوامل الخطورة شيوعاً^{٧٢}. وفي دراسات أخرى أجريت في أفريقيا، تبين أن نسب حدوث العنف الأسري في زيمبابوي وصلت إلى ٤٣٪، و ٢٠٪ في جنوب أفريقيا، و ٢٠٪ في رواندا^{٧٣}.

يقع السودان في قلب أفريقيا وتبلغ مساحته ١,٨ مليون كم^٢ وتعداد سكانه ٣٠ مليون نسمة يتوزعون في عدة مجموعات إثنية لها لغتها ولهجاتها المحلية. السودانيون الحاليون هم إثنيًا سلالة الحاميين والساميين والزوج في أعقاب الغزو العربي لمملكة النوبة في القرن السابع الميلادي. ولذلك، فإن الثقافة السودانية متنوعة وتشمل عناصر إفريقية وعربية وإسلامية ومسيحية.

في الجزء الشمالي (موقع هذه الدراسة)، يلعب الدين الإسلامي دوراً مهيمناً في حياة الناس، حيث يعتقد المسلمون المتشددون أن تعاليم الدين الإسلامي يجب أن تسيطر على جميع جوانب حياتهم (صغيرة أو كبيرة) بما في ذلك الشؤون العائلية. تشكل النساء في السودان ٥٠٪ من السكان، وهن عرضة للخطر نتيجة الظروف الاجتماعية والاقتصادية الصعبة للغاية التي تمر على البلاد حالياً بسبب الانهيار الاقتصادي والحروب الأهلية، فمعدل وفيات الأمهات هو من أعلى المعدلات في العالم (٥٠٩ لكل ١٠٠ ألف ولادة حية)، ومعدل الأمية بين النساء يصل حوالي ٦٠٪ (مقابل ٤٠٪ بين الرجال)، وحوالي ٩٠٪ من السودانيات عرضة لتسويهاات خطيرة للأعضاء التناسلية لها تأثيرات خطيرة على صحتهن الإنجابية. بالإضافة إلى ذلك، تعاني المرأة السودانية في كل من القطاعين العام والخاص من تمييز في ظروف عمل، ومشاركتها السياسية محدودة للغاية مع غياب لتأثيرها على عملية صنع القرار الوطني.

على الرغم من أن العنف الأسري وغيره من أنواع العنف ضد المرأة ظاهرة قديمة، إلا أنه لم يلفت الانتباه بشكل واسع إلا في الآونة الأخيرة. وقد قام المؤلف بإجراء دراستين كبيرتين حول العنف الأسري، واحدة عن أنماط

ومحددات العنف الأسري بين مجموعة من النساء المترددات على مركز صحي في السودان، والأخرى حول اتجاهات الأطباء نحو العنف الأسري باعتباره قضية من قضايا الصحة العامة.^{٧٤}

ووفقاً للدراسة الأولى التي تمت عام ٢٠٠٣ وشملت ٣٩٤، فقد تعرضت ١٦٤ امرأة للإساءة، مما يجعل نسبة انتشار العنف الأسري تصل إلى ٤١,٦٪. وكان متوسط العمر للنساء المساء إليهن ٢٩ سنة، ومدة الزواج ٦ سنوات، بينما بلغ دخل الأسرة السنوي لـ ١٣٣ منهن (٨١,١٪) أقل من ٢٥٠٠ دولاراً (خط الفقر)، وكانت ١٢٢ منهن (٧٤,٤٪) عاطلات عن العمل، و ٧٤ (٤٥,١٪) قضين فترة تصل من ٦ إلى ٨ سنوات من التعليم في المدرسة.

وقد تعرضت النساء المساء إليهن إلى ٥٢٥ حادث عنف العام الماضي، يمكن تصنيفها إلى سلوكيات سيطرة وتحكم (١٩٤) وتهديد (١٦٩) وعنف جسدي (١٦٢). واختلف مدى تكرار حوادث العنف من حادثة واحدة لـ ٤ امرأة (٢٥٪) لأكثر من ٦ حوادث لـ ٣٤ من النساء (٢٠,٧٪). وذكرت ٢٧ امرأة (١٦,٥٪) أنهن تعرضن للعنف خلال فترة الحمل، وأكثر من ثلث مجموعة النساء المساء إليهن ذكرن أنهن تعرضن لإساءة قبل الزواج من قبل آبائهن وإخوتهن وغيرهن من الأقارب الذكور. أما الظروف المباشرة المستخدمة كذريعة للعنف فكانت الشك بتورط الزوجة في علاقات غير مشروعة والتطاول على الزوج في الكلام وعدم العناية بالمنزل كما يجب. أما ردود الفعل الشائعة بين النساء المساء إليهن فتراوحت بين التزام الصمت (٨١ امرأة، ٥٤,٣٪) والبكاء (٣٢ امرأة، ١٩,٥٪) والمقاومة (١٨ امرأة، ١١٪).

وشملت الدراسة الأخرى حول استجابة الأطباء للعنف الأسري ١٤٢ من الأطباء الذين حصلوا على الاستبيان، حيث أعاد ١٠٢ منهم الاستبيان، مما جعل معدل الاستجابة يصل إلى ٧١,٨٪.^{٧٥} تراوحت أعمار المستجيبين بين ٢٥ إلى ٥٤ عاماً. ٥٣ منهم كن إنثاءً (٥١,٩٪)، و ٣٢ (٣١,٣٪) تعاملوا مع العنف الأسري في عياداتهم خلال عشرة أعوام. كان لدى ٤٣ طبيباً وطبيبة (٤٢,١٪) دراية مقبولة بمفهوم العنف الأسري، واعتبره ٢٨ (٢٧,٤٪) مشكلة صحية جديرة بالاهتمام، وذكر ٢١ (٢٠,٥٪) أنهم قابلوا حالة أو اثنتين في العام الماضي. وكان من بين الحواجز أمام فحص النساء للكشف عن احتمال تعرضهن للإساءة، نقص المعرفة والتدريب، وعدم كفاية الوقت المتاح في العيادات، والخوف من الوقوع في مشاكل مع الجناة. وكان لعناصر مثل النوع الاجتماعي والأنثوي والخبرة المهنية الطويلة علاقة طردية مع وجود معرفة أفضل بالعنف الأسري والرغبة في التدخل فيما يتعدى المعالجة البدنية.

مواضيع وأساليب الدراسة

هدفت دراستنا إلى التحقيق في مشكلة العنف الأسري في السودان من حيث نسب حدوثها وأنواعها وأسبابها. تمت الدراسة في العيادات الخارجية لمستشفى جامعة الرباط في الخرطوم، وهي مركز تدريب طلاب الطب في جامعة الرباط، وتضم ٢٥٠ سريراً، وجميع التخصصات الرئيسية ومعظم التخصصات الثانوية. تدير المستشفى خدمات داخلية وخدمات طوارئ على مدار الساعة. وقد اخترنا هذا المكان لدراستنا لأن الأثر الصحية هي أنسب مكان لإجراء استفسارات روتينية لأنها الأكثر اتصالاً مع السكان. أما فترة الدراسة، فكانت من ١ إلى ١٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٦. وكانت المواضيع المؤهلة لجميع النساء المتزوجات اللاتي تم الكشف عليهن على التوالي خلال فترة الدراسة. يُذكر أنه تم استبعاد النساء اللاتي كان عليهن الاستلقاء لتعبئة الاستبيان لشدة مرضهن لأنه لم يكن من الممكن إجراء مقابلات معهن في غرفة خاصة لأنهن كن بحاجة لمراقبة مستمرة وحثيئة من قبل الممرضات أو أقاربهن.

قدمت النساء المؤهلات موافقتهن شفاهة بعد أن تم وصف طبيعة وإجراءات الدراسة كاملاً لهن. وقد تجنبنا الموافقات خطية لنحول دون إيجاد رابط يكشف شخصية المواضيع وعلاقتهم بالاستبيانات، وأوضحنا للمستجيبات المحتملات أن مشاركتهن في هذه الدراسة طوعية تماماً، وأن بإمكانهن الانسحاب في أية مرحلة من مراحلها، وأن خيارهن بالمشاركة لن يؤثر على نوعية الرعاية التي سيحصلن عليها بأي شكل من الأشكال. كما شرحنا بوضوح للمشاركات

أن أسئلة حساسة سنطرح عليهن حول علاقتهن مع أزواجهن وقضايا أسرية أخرى، وطمانهن أن أية بيانات يتم الحصول عليها ستعامل بسرية تامة، ولن تُستخدم سوى لأغراض البحث.

وكانت الخطوة التالية في دراستنا إعطاء كل امرأة مؤهلة - بعد أن توافق على المشاركة - استبياناً لا يكشف عن الهوية في مكان انفرادي لضمان السرية التامة. وقد قامت ثلاث باحثات مساعدات بتقديم الدعم للمؤلف في تجنيد النساء للدراسة، وفي الإجابة على أية استفسارات أثارتهن النساء حول تعبئة الاستبيان. وحتى الوقت الحاضر، لا يوجد طريقة واحدة متفق عليها عالمياً لتعريف وقياس العنف الأسري، ولكن لأغراض دراستنا، تم تعريفه بأنه اعتداء أو تهديد أو تخويف يقوم به الزوج (Bacon et al. 2001). وقد صنفنا السلوكيات المسيئة إلى تهديدات، وسلوكيات سيطرة وتحكم، واعتداءات جسدية، وصنفنا الاعتداءات الجسدية إلى بسيطة (مثل رمي الأشياء والدفع)، ومتوسطة الشدة (مثل الضرب والكدمات) وشديدة (مثل الإصابات في الرأس والإصابات داخلية). كما طلبنا المعلومات التالية في الاستبيان:

١. السن
٢. العمل
٣. المستوى التعليمي
٤. مدة الزواج
٥. زواج الزوجة سابقاً
٦. عدد الأطفال
٧. عمر الزوج
٨. صلة قربي مع الزوج
٩. مهنة الزوج
١٠. المستوى التعليمي للزوج
١١. زواج الزوج سابقاً
١٢. تعدد الزوجات لدى الزوج حالياً
١٣. الوضع الاجتماعي والاقتصادي العام للأسرة. في وقت الدراسة، كانت الأسرة العادية في السودان تحتاج إلى ٢٥٠٠ دولار سنوياً لتلبية المتطلبات المعيشية الأساسية جداً، والأسر ذات الدخل الأقل من ذلك كانت تُعتبر فقيرة.
١٤. عادات تعاطي المواد والعقاقير لدى الزوج: الكحول والمخدرات
١٥. وقت الفراغ لدى الزوج: داخل المنزل وخارجه
١٦. التقييم الكلي للحياة الزوجية: مستقرة، عدم انسجام

١٧. ترتيبات عيش الزوجين: وحدهما، مع أسرة الزوج

١٨. هل تعرضت خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة لأشكال الاعتداء التالية من قبل زوجها: الضرب، الركل، إلقاء شيء عليها، الصفع، الدفع، الإصابة بسلاح، اللكم (على الجسم)، اللكم (على الوجه)، الإجبار على القيام بشيء ما، محاولة الخنق، الحرق، أذى جسدي بطريقة أخرى.

١٩. ماذا كانت الظروف المباشرة المستخدمة كذريعة للعنف: الشك بتورط الزوجة في علاقات غير مشروعة، التطاول على الزوج في الكلام، عدم طاعة الزوج، عدم تحضير الطعام في الوقت المحدد، رفض ممارسة الجنس، عدم العناية بالمنزل أو الأطفال كما يجب، ترك المنزل دون إذن، التشكيك في الزوج حول المال أو إقامة علاقات غير مشروعة، غير ذلك.

٢٠. ردود فعل الزوجة على العنف: التزام الصمت، البكاء، المقاومة، إبلاغ أحد الأقارب، اتخاذ قرار بطلب الطلاق، الاتصال بالشرطة، غير ذلك.

٢١. سلوكيات السيطرة التي تبدر عن الزوج عادة: الصراخ في وجهها، انتقادها أمام الآخرين، تقييد حياتها الاجتماعية، مراقبة تحركاتها، التضييق عليها في المال، غير ذلك.

٢٢. سلوكيات التهديد التي تبدر عن الزوج عادة: رمي الأشياء، التهديد باستخدام قبضة اليد، تهديد الأطفال، التهديد بالسلاح.

٢٣. إذا كانت حصلت على مساعدة طبية بعد اعتداءات زوجها، وإذا كان طبيبها سألها إن كانت قد تعرضت لاعتداء من قبل زوجها.

٢٤. إذا كانت تعرضت لاعتداء أثناء فترة الحمل.

٢٥. إذا كانت تعرضت لاعتداء على يد أفراد آخرين من الأسرة: مثل الأب، الأم، الأخ، الابن، أقارب الزوج.

٢٦. إذا كانت اعتدت على زوجها بأي شكل من الأشكال.

تمت تجربة الاستبيان مع ١٢ مشاركة في نفس موقع البحث للتحقق من تنظيمه ووضوحه وسهولة إنجازه. وجدت أول عشر نساء الأسئلة المتعلقة بالعنف الجنسي غير مقبولة، لذلك تم حذفها من المسح قمنا إثرها بتحليل البيانات الإحصائية أعلاه للوصول للنتائج الواردة أدناه.

النتائج

قمنا بالاتصال بـ ٢٥٤ امرأة مؤهلة للدراسة، وافقت منهن ١٤٦ على المشاركة في الدراسة، مما جعل نسبة الإجابة تصل إلى ٥٧،٤٪. من بين هؤلاء النساء، ٦٧ (٤٥،٨٪) كن يتعرّضن لواحد أو أكثر من السلوكيات المسيئة على يد أزواجهن في الأشهر الثلاثة الأخيرة. تم اعتبار النساء غير المعرضات للإساءة (٧٩) المجموعة الضابطة في الدراسة. بقية النساء (٧٩ امرأة ٥٤،٢٪)، كن المجموعة الضابطة للدراسة فيما يتعلق بالخصائص الاجتماعية السكانية لمجموعة الدراسة.

يبين الجدول ١ الخصائص الاجتماعية السكانية للنساء المساء إليهن والمجموعة الضابطة (النساء غير المساء إليهن). كانت المجموعة المساء إليها أصغر بكثير من المجموعة الضابطة، فقد كان معدل أعمار المجموعة المساء إليها ١٦-٥٣ سنة، في حين كان معدل الأعمار للمجموعة الأخرى ٢٠-٥٧ سنة. أما المستوى التعليمي للمجموعة

المساء إليها فقد كان أقل بشكل ذي دلالة إحصائية من المجموعة الأخرى. وبالنسبة للحالة الاجتماعية الاقتصادية، كما يحددها الدخل السنوي، فقد تبين أن غالبية أسر النساء المساء إليهن تعاني من الفقر. أما مدة الزواج فكانت أقصر للنساء المساء إليهن (صغر سن هذه المجموعة أكد هذه النتيجة).

تشابهت المجموعتان إلى حد ما في وجود صلة قريبي مع الزوج، ونسبة قليلة فقط من المجموعتين كانت متزوجة سابقاً. وقد كان هناك اختلاف ذو دلالة إحصائية في التقييم الذاتي للحياة الزوجية، مع وجود عدد أكبر من النساء غير المنسجمات مع أزواجهن. وكانت للمجموعة غير المساء إليها عدد أكبر من الأطفال (قد يعود ذلك لمدة الزواج الأطول لديهن).

كما بينت الدراسة الخصائص الاجتماعية السكانية لأزواج النساء المساء إليهن وغير المساء إليهن على حد سواء. حيث كان أزواج النساء المساء إليهن أصغر من المجموعة الأخرى، وكانوا أقل تعليماً، وأدنى من حيث الحالة الوظيفية. من جهة أخرى، قلة من أزواج كلتا المجموعتين كانوا متزوجين سابقاً واثان فقط منهم كانا في وضع تعدد زوجات حالياً. كما كانت الغالبية العظمى من الأزواج في المجموعة المساء إليها يتعاطون الكحول أو العقاقير غير المشروعة.

أما عن أنماط سلوكيات السيطرة والتهديد، وتوزيع حوادث العنف الجسدي بين المجموعة المساء إليها في فترة ثلاثة أشهر قبل الدراسة فقد أشارت الدراسة إلى أن أكثر سلوكيات السيطرة شيوعاً هي الصراخ في وجهها، وانتقادها أمام الآخرين، وتقييد حياتها وأنشطتها الاجتماعية. وكانت سلوكيات التهديد الأكثر شيوعاً هي رمي الأشياء، والتهديد باستخدام قبضة اليد، وتهديد الأطفال. وأفادت النساء المساء إليهن بوقوع ١٢٣ حادثة عنف جسدي (أي ١,٨ للمرأة الواحدة). وكانت حوادث العنف الأكثر شيوعاً هي الدفع واللحم على الجسم والوجه، وكانت غالبيتها خفيفة إلى متوسطة الخطورة. وتضمنت الظروف المباشرة المستخدمة كذريعة للعنف: الشك بتورط الزوجة في علاقات غير مشروعة، والتطاول على الزوج في الكلام، عدم طاعة الزوج، عدم تحضير الطعام في الوقت المحدد، رفض ممارسة الجنس، عدم العناية بالمنزل أو الأطفال كما يجب، ترك المنزل دون إذن. وفي عدد قليل من حوادث العنف، لم تكن هناك أسباب واضحة. أما النساء اللاتي كن يعانين من إصابات تتطلب علاجاً طبياً، فلم يذكرن السبب الحقيقي للإصابة لأطبائهن المعالجين. وفي الوقت نفسه، فإن أياً من أطبائهن سألهن على وجه التحديد حول إمكانية كونهن تعرّضن لاعتداء على أيدي أزواجهن.

كما ذكرت ١٢ من النساء المساء إليهن (١٧,٩٪) تعرضن للاعتداء من قبل آخرين من غير أزواجهن مثل الآباء والأخوة بينما ذكرت ثماني نساء حوادث عنف مختلفة أثناء فترة الحمل، ولكنهن لم يذكرن أية مضاعفات ناتجة عن ذلك. كما ذكرت الضحايا العديد من ردود الفعل لسلوكيات العنف، بما في ذلك التزام الصمت (٢٥ امرأة) والبكاء (١٩ امرأة)، والمقاومة (١٢ امرأة) وإعلام أحد الأقارب (٩ نساء)، والاتصال بالشرطة (امرأتان). وتنوعت أنماط العنف والإساءة حيث تراوحت من الصراخ عليها وانتقادها أمام الآخرين إلى مراقبة حركتها والتضييق عليها مالياً إلى رميها بالأغراض وتهديدها بالضرب أو السلاح بل واللجوء إلى ضربها ولكمها وركلها وما شابه.

مناقشة النتائج

نسبة انتشار العنف الأسري

تؤكد هذه الدراسة مدى حساسية مسألة العنف الأسري كما يتضح من الاستجابة المنخفضة نسبياً من بين النساء التي تم الاتصال بهن (١٤٦ من أصل ٢٥٤) للمشاركة في التحقيق. غني عن الذكر أننا أبلغنا المشاركين المشاركات المحتملات أن تعبئة الاستبيانات ستتم في غرف مع المحافظة على الخصوصية، وأن معظم الباحثين المساعدين هم من الإناث، وأن

البيانات التي يتم جمعها س تعامل بسرية تامة. ويُذكر أن معدل الاستجابة في هذه الدراسة أقل مما كان عليه في دراسة مماثلة أجراها المؤلف في عام ٢٠٠٣^{٧٦} والفرق بين الدراستين هو أن النساء اللاتي أجري معهن التحقيق في عام ٢٠٠٣ كن مألوفات لدى المؤلف، فقد كان يتابعهن لعدة سنوات لدراسة الأمراض المزمنة. ونعتقد أن استخدام وسائل الاتصال الحديثة مثل الهاتف والإيميل قد يشجع المزيد من النساء على المشاركة في مثل هذه الدراسات في المستقبل.

معدل انتشار العنف الأسري الذي كشفت عنه دراستنا (٤٥,٨٪) هو من أعلى المعدلات في العالم، وهو مشابه تقريباً لدراسات أجريت في بلدان أفريقية وإسلامية أخرى (على سبيل المثال: ٤٠٪ في بنغلادش، ٣١٪ في نيجيريا و ٣٠٪ في أوغندا).^{٧٧} كما أن معدل الانتشار في دراستنا أعلى مما هو عليه في معظم الدراسات الغربية (على سبيل المثال، ٢٣٪ في المملكة المتحدة).^{٧٨} وقد أجريت معظم الدراسات الغربية في أطر صحية وظروف مماثلة لدراستنا. ومن المفيد هنا أن نذكر القراء بأن تعريفنا الإجرائي للعنف الأسري يشمل، بالإضافة إلى العنف الجسدي، سلوكيات السيطرة والتهديد أيضاً. ففي حال كان التعريف ينطوي على العنف الجسدي وحده، لكان معدل الانتشار أقل. كما أن هناك إمكانية بالألا تعكس النتائج الصورة كاملة نظراً للحساسية الثقافية للموضوع، مما يجعل البعض لا يتحدثون بصراحة. وقد اعتمدت الاستبيانات، بطبيعتها، على الإبلاغ الذاتي، وكانت أيضاً عرضة للتحيز في التذكّر والإبلاغ.

ديناميات وأنماط العنف الأسري

يتعلق هذا القسم بمناقشة مدى تكرار العنف الأسري وأنواعه وردود فعل الضحايا عليه. يُذكر أن عينة الدراسة تشمل كامل الطيف الممكن لأشكال العنف (من الصياح والصراخ لاستخدام أسلحة بسيطة مثل العصي). لكن اللجوء إلى أفعال تؤدي إلى إصابات خطيرة أمر نادر في السودان، وقد يعود ذلك لكون هذه الأفعال تؤدي عادة إلى إصابات خطيرة تستدعي تدخل أطراف أخرى مثل الأطباء أو الشرطة. ويبقى نمط الاعتداء هو سلوكيات السيطرة أو التهديد مع أو بدون إصابات خفيفة، أو نادراً، متوسطة وخطيرة. المجتمع السوداني، بصفة عامة، متسامح تجاه سلوكيات السيطرة من قبل الرجال. بل أكثر من ذلك، تربط قطاعات المجتمع السوداني الأقل تعليماً الرجولة بالسيطرة على الزوجات، ولذلك يقيد الرجال الأدوار الاجتماعية والمهنية للنساء في أسرهم. "التاريخ الطبيعي" للعنف الأسري هو وجود مرحلة أولى من سلوك السيطرة، ومن ثم، وهذا يتوقف على مدى تمكين و/أو رد فعل الزوجة، فإنه قد يتصاعد أو لا يتصاعد ليصل حد الإساءة الأكثر شدة.

لا يشكل العنف الأسري أبداً حدثاً معزولاً في حياة امرأة متزوجة، بل هو حدث متكرر.^{٧٩} في دراستنا، وقعت الاعتداءات الجسدية وحدها بمعدل ٨,١ للفرد في فترة ثلاثة أشهر، أما سلوكيات السيطرة والتهديد فكانت تقريباً "لا تحصى"، لذلك أشرنا لها في قسم النتائج بـ"السلوكيات المعتادة". ومما يسهل تكرار هذه الأعمال المسيئة أن العنف الأسري يحدث في جو تسوده سلوكيات السيطرة على المرأة. وكضحايا للعنف الأسري، فإن النساء متاحات بسهولة للمسيئين لهن بما أنهم يعيشون في نفس المكان.

ومن المهم جداً مناقشة ردود الفعل المحتملة من ضحايا العنف الأسري (وخاصة لتنفيذ برامج الدعم). في دراستنا، كان رد فعل غالبية النساء المساء إليهن يتسم بالسلبية والعجز، فهن إما التزمن الصمت (خوفاً من وصمة العار) أو بكين (حتى هذا كان بصوت منخفض غير مسموع من الجيران). وللأسف، قد تتعامل بعض النساء بنوع من اللامبالاة الاجتماعية مع العنف الأسري لأنهن يعتبرنه مسألة شخصية، أو حتى استجابة مبررة لسوء السلوك من جانب الزوجة^{٨٠}. وبحسب دراسة أجريت في بنغلادش في عام ٢٠٠١، تبين أن الوضع في السودان مماثل لوضع البنغاليين، حيث كانت ٦٠٪ من النساء ما زلن يلتزمن الصمت إزاء الإساءة إليهن.^{٨١} فالمرأة البنغالية تفضل الاستمرار في علاقة مسيئة، وتسوق أسباباً مثل القبول الواسع بين المجتمع للعنف الأسري والخوف من وصمة العار والتبعية المالية والخوف من المزيد من الإساءة وصعوبة الحصول على طلاق كأسباب للبقاء في الزواج.^{٨٢} وفي دراسة أجريت في أوغندا عام ٢٠٠٣، وُجد أن غالبية النساء يعتبرن الضرب مبرراً في بعض الحالات، مما يشكل تحدياً أساسياً في جهود الحد من العنف الأسري.^{٨٣} ولكن في حالات قليلة، اتصلت النساء المساء إليهن بمصادر

المساعدة، وخصوصاً عندما لم يعد بإمكانهن احتمال المزيد، أو عندما أصبح العنف يهدد حياتهن.^{٨٤} وحتى في بلد غربي مثل كندا، حيث النساء أكثر وعياً بحقوقهن، نادراً ما تبلغ الضحايا الشرطة عن الإساءة إلا عندما يتم استخدام سلاح، أو إذا كن يخشين على حياتهن.^{٨٥}

ويبرز سؤال، لماذا تبقى الضحايا في علاقات مسيئة كهذه؟ وهناك سببان محتملان. بسبب وضعين المتدني تعليمياً ومهنياً، لا يمكن لبعض النساء الحصول إلا على وظائف هامشية (ومنخفضة الدخل) أو غير قانونية فقط. ونظرياً، يبدو الطلاق حلاً نهائياً لوضع حد للاعتداءات الأسرية. بحسب الفقه، فإن قرار الطلاق هو تقريباً حكر للزوج، ولا يمكن للمرأة رفع دعوى للطلاق في المحاكم السودانية إلا في ظروف معينة (حيث يكون عليها متابعة إجراءات محكمة مزعجة وطويلة الأمد قد تستغرق عدة سنوات). وبعض النساء يرفضن خيار الطلاق معتبرات أنه وصمة عار اجتماعية، أو لأنهن لا يردن لأولادهن أن يعانون عندما يفقدون الدعم المالي من آبائهم، أو لأنهن يأملن في أن يتغير أزواجهن نحو الأفضل.^{٨٦}

أفادت عدد من النساء في عينة الدراسة أنهن تعرضن للإساءة على أيدي أفراد من أسرهن غير أزواجهن، وذكرن على وجه التحديد آباءهن وإخوتهن، وحتى بعض أفراد عائلة أزواجهن المقربين. وبالمثل، أفادت دراسة هندية أن ٧٪ من ضحايا العنف الأسري تعرضن للاعتداء على يد جناة متعددين،^{٨٧} من بينهم الأب أو الأخ أو أفراد عائلة مقربين آخرين. وتتعدّد الأمور عندما لا تعتبر بعض المجتمعات أن بعض الأفعال مثل الضرب أو الإساءة اللفظية عنفاً إذا ارتكبتها الأب أو الأخ.

في حالات نادرة، وردت تقارير حول رجال يتعرضون للإساءة من قبل زوجاتهم.^{٨٨} وأكثر من ذلك، يمكن أن يشكل العنف الأسري مشكلة في علاقات مثلية الجنس.^{٨٩} لكن لم تعترف أي من النساء في عينتنا بأنها قامت بالإساءة إلى زوجها، سواء لفظياً أو جسدياً. ونحن نعلم أن هذا النمط من الإساءة نادر الحدوث في المجتمع السوداني.^{٩٠} وفي دراسة في المملكة المتحدة، أفاد واحد من بين سبعة رجال بأنه تعرض لاعتداء جسدي من قبل زوجته.^{٩١} حتى في المجتمعات الأفريقية، هناك تقارير تقيد بتعرض رجال للإساءة. في أوغندا، كانت ١٨٪ من النساء اللاتي شملهن الاستطلاع تسيء لشركائهن الذكور الحاليين لفظياً أو جسدياً.^{٩٢} ومع ذلك، تبقى مثل هذه الحوادث أقل خطورة من تلك التي تبلغ عنها النساء.

الظروف المحيطة بالعنف الأسري وعوامل الخطر المرتبطة به

تشير دراستنا إلى وجود علاقة واضحة بين العنف الأسري وبعض الخصائص الاجتماعية السكانية والشخصية، مثل الفقر وصغر السن وتدني المستوى التعليمي وتدني احتمال عمل الزوجة وتعاطي الزوج للمخدرات أو الكحول. وأثناء بحثنا في دراسات مختلفة حول العنف الأسري، وجدنا قائمة طويلة من الأسباب والظروف المباشرة الأخرى المستخدمة ذريعة للعنف الأسري، من الأمثلة عليها البنية الأبوية للأسرة، والاختلاف في الخلفيات الإثنية والدينية والاجتماعية الاقتصادية بين الزوجين، والحمل، الشك في سلوك غير أخلاقي، والعصيان، والتطاول على الزوج، والتعرض لعنف أسري في مرحلة الطفولة، والعجز الجنسي، والغيرة، ورفض ممارسة الجنس، واستخدام وسائل منع الحمل بدون إذن، وإهمال المنزل أو الأطفال، والاختلافات في نهج تنشئة الأطفال، والشجار حول المال.

السياقات الاجتماعية الثقافية

أشارت دراسات عديدة أن المحددات الممكنة للعنف الأسري واضحة عبر مختلف السياقات الثقافية والمجتمعية.^{٩٣} في هذا القسم، سنناقش تأثير ثلاثة عوامل على العنف الأسري: نظرة المجتمع للعنف، ومؤسسة الزواج، والدين.

نظرة المجتمع للعنف هي في المقام الأول نتاج للمعرفة المتلقاة والبيئة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تقع فيها أفعال العنف. فالكثير من الناس يظنون أن العنف يُقتصر على أفعال تتسبب في آثار جسدية على الجسم، ولا يشمل

الآثار النفسية والاجتماعية. وهكذا، لا تُعتبر ممارسات مثل تعدد الزوجات أو تقييد حركة المرأة عنفاً! وفي كثير من المجتمعات، تجعل علاقات القوة الاجتماعية والاقتصادية الحالية المرأة عملياً ملكاً للرجل. و"ملكيتهم للمرأة" تجعلهم ينزعون للإساءة من خلال ربط الرجولة بشرف الذكور، وقبول العنف فيما يتعلق بعفة الأنثى من أجل حل النزاعات. هذه المعايير ليست حكرًا على السودان وقد تسود في كثير من الثقافات في جميع أنحاء العالم.^{٩٤} وهكذا، فإن العنف الأسري يحدث في بيئات تتقبل العنف ضد المرأة في المجتمع عموماً (في العمل، في الشارع، الخ).

كما أن مسألة العنف الأسري وثيقة الصلة بمؤسسة الزواج، فالزواج موقع مهم للتعبير عن الأفكار حول الأدوار والعلاقات القائمة على النوع الاجتماعي.^{٩٥} فبعض الأزواج المسلمين يهيئون زوجاتهم اجتماعياً للاعتقاد بأن كل ما يطلبه الزوج من الأسرة هو نفس ما يطلبه الله، وهم بذلك يجعلون من أنفسهم إلهاً نوعاً ما.^{٩٦} وغالباً ما يلجأ الرجال للعنف لفرض أدوارهم المهيمنة باعتبارهم ذكوراً، ولا سيما في السنوات الأولى من الزواج.^{٩٧} وفي بداية الزواج، لا تعرفن الشابات سوى القليل عن الجنس والتدبير المنزلي. وعند هذه المرحلة، غالباً ما يستخدم الرجال المسيئون العنف الأسري لوضع قواعد جديدة لشريكاتهم المستقبلات، واللاتي يصبحن عندها عرضة للإساءة وعاجزات أمامها. وقد يفاقم من العنف الأسري عدم تفهم بعض الرجال لمتطلبات الزواج في الإسلام.

في الإسلام، الزوج يدفع المهر، وهو مبلغ من المال أو الممتلكات المقصود بها منح زوجة المستقبل بعضاً من الأمن الاقتصادي. لكن لسوء الحظ، قد يفهم بعض الرجال المهر بأنهم يشترون عبدة، مما يمهد الطريق للعنف وتبعية الزوجة. وثمة مسألة ذات صلة وهي الطلاق. في المجتمع السوداني، الطلاق (أو حتى عدم الزواج) غير مقبول اجتماعياً، وخصوصاً عندما تطلب الزوجة الطلاق. وكما ناقشنا أعلاه، من الصعب الحصول على الطلاق عندما يكون برادة الزوجة. وبالإضافة إلى ذلك، تعاني المطلقات من العزلة الاجتماعية أو حتى مزيد من العنف من أفراد آخرين من الأسرة (فهي ثقافياً غير مسموح لها أن تعيش حياة مستقلة في منزل منفصل).

يلعب الدين دوراً مهماً في حياة السودانيين، والإسلام هو دين الأغلبية. ويعتقد الكثير من المسلمين أن تعاليم الدين الإسلامي ينبغي أن تتحكم بجميع جوانب حياتهم، وفي مقدمتها، شؤون الأسرة. كما يعتقد بعض المسلمين أن الإسلام يفضل سيادة الذكور ويتطلب الطاعة المطلقة من المرأة (الزوجة والأخت والابنة) لرغبات وأوامر رجال العائلة. وهم في ذلك يستخدمون مقاطع مختارة بانتقائية من القرآن الكريم ليثبتوا أن الرجال الذين يضربون زوجاتهم يتبعون أوامر الله.^{٩٨} بل أكثر من ذلك، بعض المسلمين الأصوليين (كما في جميع الأديان) يعتقدون أن المرأة هي مصدر كل الخطايا في العالم، مما يمهد الطريق نحو العنف ضد المرأة. مع ذلك، يحاول بعض رجال الدين المستنيرين تقديم قراءات مبتكرة وعادلة للقرآن الكريم ليبيّنوا أن الإساءة للزوجة هي نتيجة للثقافة السائدة في المجتمع لا للدين.^{٩٩}

الفقر والتمكين

على الرغم من أن النساء من جميع الفئات الاجتماعية والاقتصادية يعانين من العنف الأسري، تقدّم العديد من الدراسات بعض الأدلة على أن النساء من العائلات الفقيرة يتعرّضن للعنف بشكل أكبر،^{١٠٠} فالفقر يزيد من التعرض للعنف من خلال زيادة الصراعات داخل العلاقات، وبارتباطه مع تدني القدرة التعليمية والاقتصادية، فهو يقلل من قدرة الرجل على العيش بطريقة يعتبرونها ناجحة.^{١٠١} كما أن فقدان الرجل لدوره كمعيل مالي للأسرة يولد المزيد من التوتر داخل الأسرة. فبعض الرجال، بعد أن فقدوا إحساسهم بالسلطة والسيطرة، ينقسون عن غضبهم من الفقر وعدم قدرتهم على أداء دورهم كمعيلين بضرب زوجاتهم. وتشير بعض الدراسات أن النساء المعنفات قد يبقين في علاقات مسيئة بسبب الاعتماد المالي.^{١٠٢} لكن هناك أسباب أخرى لهذا الموقف، ففي دراسة أجراها المؤلف، وجدنا أن بعض النساء لم يكن معتمدات مالياً على المعتدين عليهن، لكنهن كنّ مترددات في الخروج من العلاقة بسبب الاعتماد النفسي والخوف من المزيد من الإصابات ووصمة العار المرتبطة بالطلاق وعدم إمكانية الحصول عليه.^{١٠٣}

هناك وجهات نظر مختلفة عن آثار التمكين الاقتصادي على احتمالية تعرض المرأة للإساءة. في بنغلادش، أشارت دراسة أن النساء المشاركات في برنامج القروض الصغيرة - وبسبب حصولهن على دور عام واجتماعي أكبر - كنّ محميات إلى حد ما من العنف الأسري.^{١٠٤} وبالتالي، يمكن اعتبار التمكين الاقتصادي ينطوي على خروج عن القواعد التقليدية للجنسين والتي تفرض العزلة على المرأة.^{١٠٥} وفي الوقت نفسه، يرى باحثون أن زيادة قدرة المرأة على المساومة قد تهدد شعور الرجال بالسيطرة والتفوق.^{١٠٦} وللتفصيل، يمكن للدور الجديد للمرأة كعميلة مالية - ولا سيما في سياق الحرمان - أن يقوّض ما يفترض الرجل أنه حقه في السلطة والقوة والسيطرة، ويزيد خطر التعرض للعنف.^{١٠٧} كما أشارت بعض الدراسات إلى أن دور الحماية الذي يلعبه الوضع الاجتماعي المرتفع للمرأة - الذي يُفاس بمسئول التعليم ودرجة الاستقلالية أو التحكم بالموارد - قد يختلف من سياق لآخر وفعلياً يضع هؤلاء النساء في المجتمعات المحافظة في خطر أكبر للتعرض للعنف.^{١٠٨} واقترحت إحدى الدراسات أن هؤلاء النساء الممكنات عرضة للعنف فقط في المستقبل القريب، ولكنهن يصبحن محميات بعد أن يصلن عتبة حرجة من التمكين، حيث يحدث تحول كبير في الدور القائم على النوع الاجتماعي.^{١٠٩}

التعليم

تشير دراستنا بوضوح إلى وجود علاقة بين مستوى تعليم المرأة وتعرضها للإساءة. وبالمثل، أشارت دراسة تركية أن العنف الأسري يرتبط بشكل كبير بتدني مستوى التعليم، حيث تبلغ النساء الأميات وشبه الأميات عن التعرض للإساءة الزوجية أكثر بـ ٦,٢ مرات من المتعلمات.^{١١٠} ويرتبط تدني مستوى التعليم بتدني الدخل والبطالة.^{١١١} كذلك، قد يكون تدني المستوى التعليمي مؤشراً على ضعف مهارات الاتصال، والتي تم ربطها بالعنف الأسري (وخصوصاً في حالة وجود فجوة تعليم كبيرة بين الزوجين).^{١١٢}

العمل

البطالة (الحديثة أو طويلة الأجل) وضغط العثور على عمل يزيدان من خطر إساءة الرجل جسدياً لزوجته.^{١١٣} لكن العمل بحد ذاته لا يحمي الأزواج من العنف الزوجي، فهناك ارتباط بين العمل المجهد والعنف.^{١١٤} وقد يولد التنافس في العمل توتراً بين الزوجين. في مجتمع محافظ مثل السودان، عمل الزوجة وبطالة الزوج واعتقاد الزوج بفقدانه السلطة والسيطرة ينتهك دور هذا الأخير الثقافي كعميل للأسرة، الأمر الذي يولد نزاعات أسرية.

تعاطي الكحول

أكثر من نصف أزواج النساء المساء إليهن يتعاطون الكحول أو بعض العقاقير، أبرزها القنب. أشارت بعض الدراسات إلى أن ٢٥-٥٠٪ من مرتكبي العنف الأسري كانوا يشربون الكحول أثناء حادثة العنف، وأن ٦٠-٧٠٪ منهم لديهم تاريخ مع مشكلة الشرب.^{١١٥} كما تبين أن نصف المدمنين على الشرب كانوا يشربون قبل حادثة العنف، وأنهم أكثر عرضة ثلاث مرات لإساءة معاملة زوجاتهم مقارنة بمن لا يشربون الكحول. وعلى وجه الخصوص، أبلغت ضحايا العنف الأسري في العديد من الدراسات الأفريقية أن الكحول هو السبب الأكثر شيوعاً.^{١١٦} وقد حققت بعض الدراسات في الدور المحدد للكحول في العنف الأسري، وبيّنت أن الكحول قد يؤدي إلى تفاقم المشاكل الزوجية التي تؤدي إلى الانفصال والطلاق.^{١١٧} وتشير بعض الدراسات أن عوامل البنيوية مثل البطالة تعطل المجتمعات والعلاقات الاجتماعية مما يؤدي إلى تعاطي الكحول.^{١١٨} وفي بعض الحالات، هناك مزيج من تعاطي الكحول والمخدرات، مما يزيد مخاطر العنف الأسري.

الحمل

مقارنة بالدراسات الدولية، لم يبلغ سوى عدد قليل من المشاركات اعتداءات أثناء فترة الحمل. وقد يرجع ذلك إلى أن السيدات الحوامل في السودان معتادات على تلقي الرعاية على يد الوالدة أو الشقيقة الكبرى، بحيث يقل مدى اتصالها بزوجها. لكن يُعتقد أن الحوامل معرضات أكثر بمرتين للعنف الجسدي. في المملكة المتحدة، ١٢٪ من حالات وفيات

الأمهات كن يتعرضن للعنف الأسري خلال الحمل)،^{١١٩} وحوالي ٤١٪ من النساء اللاتي يرتدن عيادات الولادة في الدراسات الأميركية أبلغن بوجود تاريخ من العنف في مرحلة ما في الأحمال السابقة.^{١٢٠} فبحكم التغيرات الهرمونية والنفسية، قد يؤدي الحمل لاعتداءات عنيفة بسبب حوادث بسيطة تُستخدم كذريعة للعنف، مثل رفض ممارسة الجنس أو عدم الرعاية بالمنزل كما يجب أو حتى نسيان خياطة زر في قميص الزوج. العنف أثناء الحمل مشكلة صحية واجتماعية تنطوي على أخطار خاصة للنساء وأجنتهن، وهو أيضاً مرتبط بزيادة مخاطر الإجهاض، الولادة المبكرة، وانخفاض وزن المواليد.

الاستنتاجات

تشير دراستنا إلى أن العنف الأسري يمثل مشكلة خطيرة وشائعة في المجتمع السوداني. فنسبة انتشاره التي تصل ٤٥,٨٪ تجعل السودان من بين أكثر البلدان التي ينتشر فيها العنف الأسري. وكما هو الحال في بلدان أخرى، يرتبط العنف الأسري ببعض السلوكيات الاجتماعية السكانية والشخصية السلبية لدى الشريك الذكر. كما أن الحالة الدونية للمرأة، في جميع أنحاء العالم، نتيجة عوامل ثقافية واجتماعية اقتصادية طويلة المفعول تجعل النساء فريسة سهلة للعنف. ويمكن إرجاع جذور العنف الأسري للثقافة وتفسيرات دينية تدعم وتحافظ على الصورة النمطية للعلاقات بين الجنسين بما يؤيد سيادة الرجل وتبعية المرأة. كما أن المرأة نفسها أقل وعياً بحقوقها الإنسانية. والأكثر من ذلك – وكما ناقشنا أعلاه – وافقت بعض النساء الأفريقيات أن لدى الرجال ما يبرر ضربهم لزوجاتهم. هناك غياب لسياسة واضحة توجه الجهود التي تبذلها المنظمات الحكومية وغير الحكومية للتخفيف من الإساءة للمرأة، فالحكومة السودانية لم تصادق بعد على اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة (سيداو)، التي تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٩٣. وحالياً، لا يوجد قوانين لمعاقبة مرتكبي العنف الأسري في السودان. وبالمثل، لا يوجد خدمات داعمة للضحايا، حتى على شكل من خدمات مشورة أو مساعدة قانونية. والمتاح هو مجرد ندوات وورش عمل قليلة جداً وضعيفة التنظيم يقوم بها عدد قليل من منظمات المجتمع المدني، لا يصدر عنها سوى توصيات غير مفيدة. إن نقص المعلومات والعجز المالي وعدم وجود المهارات اللازمة للتدخل مسؤولة عن هذا الوضع.

والحاجة ماسة لتنفيذ برنامج وطني متعدد التخصصات للتصدي لهذه المشكلة، بالتعاون مع العاملين في مجال الصحة، والمنظمات غير الحكومية، والدوائر الحكومية لشؤون الصحة والرعاية الاجتماعية، والجامعات، وغيرها من الجهات المعنية. وينبغي أن يهدف البرنامج إلى زيادة الوعي المهني والعام وتوعية الحكومة بهذه المشكلة، وتوفير الخدمات الطبية والدعم الاجتماعي والحماية والمساعدة القانونية لضحايا الإساءة. وينبغي أن ندرك أنه ما لم يظهر دليل على وجود فائدة، فإن الكثير من النساء قد يترددن في التعاون مع البرامج التي تتعامل مع العنف الأسري.

من جانبنا، على النظام الصحي أن يستيقظ لفكرة أن العنف الأسري هو أكثر من مجرد مسألة شخصية، وأن على المهنيين الصحيين التعامل معها. فمن المهم تثقيف وتدريب الأطباء والعاملين الصحيين على تعزيز الكشف عن الإساءة، وهو ما يمكن تحقيقه من خلال تطوير المعارف والمهارات الخاصة بالتعرف على ضحايا العنف الأسري ومعالجتهم، والتأكيد على الاعتبارات الثقافية والأخلاقية والقانونية ذات صلة به. وفيما يتعلق بحالات الطوارئ، ينبغي إصدار مبادئ توجيهية شاملة خاصة بالتعرف على النساء المساء إليهن وكيفية تقديم الإدارة الطبية لهن. ومع أن الأطباء وحدهم لا يمكنهم تغيير المعايير الثقافية والاجتماعية التي قد تؤدي إلى العنف، إلا أن بإمكانهم تقديم ما هو أكثر من المعالجة الجسدية للإصابات. وينبغي عليهم أن يكونوا واعين بالمفاهيم المجتمعية (والمهنية) الخاطئة التي تؤدي إلى العنف أو تزيد من حدته، ويعملوا على تصحيحها. كما على الأطباء أن يعترفوا بالظلم الكامن في العنف وإيصال رسالة واضحة للمسيئين والضحايا والمجتمع بأن الضرب مشكلة صحة عامة، وليس مسألة شخصية على الإطلاق. كما أن هناك حاجة لبعض الإصلاح في المناهج الدراسية لكليات الطب لتقديم دورات محددة حول العنف الأسري من أجل نقل المعرفة وتطوير الوعي وقدرات التدخل لدى أطباء المستقبل.

كيف يساهم الإمام في التغيير

مقابلة مع الإمام محمد ماجد^{٢٣}

أجرتها معه مها الخطيب في ٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٦

١. إن كنت مسؤولاً، فما الذي ترغب في سماعه من إمام في كتاب حول العنف الأسري؟

أول شيء أود سماعه من الإمام هو الإقرار بتواجد مشكلة العنف الأسري لأن الإقرار بحد ذاته يشكل مشكلة حقيقية في المجتمع الإسلامي وعليهم بالتالي التصدي لهذه المشكلة وتقديم المشورة للناس. الأمر الأول هو الاعتراف. أما الخطوة الثانية التي أتمناها فتمثل في تعبير الإمام عن دعمه المطلق للأشخاص الذي يعانون من العنف الأسري في مجتمعه، إضافة إلى تشجيعه للمجتمع المسلمين على تخصيص الموارد اللازمة لمساندة ضحايا العنف الأسري، وتشجيع الأئمة والعلماء الآخرين على معالجة هذه المسألة من منظور ديني وذلك دعماً لكل من عانى منه. الشيء الثالث هو أن على الإمام أن يمتلك المعارف الأساسية حول العنف الأسري بحيث لا يقتصر علمه على المعرفة الإسلامية وحسب، فالآيات القرآنية والأحاديث التي يتم الاستشهاد بها طوال وقت للبرهنة على أن الإسلام يناصر المرأة ويتعامل معها على قدم المساواة مع الرجل هي جزء من الأدبيات التي يعرفها الجميع، لكن السؤال الحقيقي هو ما الذي يلزم لتنفيذ برامج مبنية على التربية الإسلامية للقضاء على العنف الأسري ووضع حد له في مجتمع المسلمين.

٢. ما الدور الذي تلعبه في القضاء على العنف الأسري؟

برأي إن الغاية من دوري كإمام في المجتمع وفي حياتي الخاصة هي تقديم المشورة في القضايا التي تهم المجتمع. أعتقد أن كل إمام يترك انطباعاً لدى أفراد المجتمع بأنه إما منفتح لهم وبإمكانهم طرح قضايا معينة معه أو أنه قد يصدّمهم، وأرى أن الطريقة التي يعالج بها الأئمة بعض القضايا المتعلقة بالعلاقات بين الجنسين والطلاق مقلقة للغاية، فقد ذكرت العديد من النساء إنهن لا يلجأن لبعض الأئمة لأنهن يعرفن مسبقاً رأيهم بمسألة العنف الأسري. فمثلاً إذا كان هناك امرأة تعاني من عنف أسري وتريد إنهاء زواجها، يمكن أن يقوم الإمام بدلاً من ذلك بحثها على البقاء وإخبارها بأنه حرام عليها أن تترك زوجها. فبحسب منظوره من الإسلام والشريعة الإسلامية، يقوم الإمام إما بمساعدة الناجيات أو صدّهن. هذا أولاً. وأنا أستغل الخطبة والدروس للتشديد على ذلك، وأعمل على أن أكون متاحاً ليمكن أي شخص يواجه عنفاً أسرياً من القدوم والتحدث معي. ثانياً، أقول للمجتمع بصفة عامة، وفي حياتي الشخصية أيضاً، إن من المهم جداً أن نقول إن العنف الأسري غير مقبول ولا يمكن التسامح معه، وأنه ظلم بنظر الشريعة الإسلامية، وبالتالي أعتقد أن دوري هو تقوية المعرفة والوعي عند الناس.

٣. ماذا عن دورك في مكافحة العنف الأسري عند تقديم محاضرات في مجتمعات مسلمة أخرى في الولايات المتحدة؟

هناك جانب آخر أؤكد عليه في عملي وهو الاستشارة قبل الزواج، وقد أصبحت معروفاً بذلك في هذا المجتمع وعموم الولايات المتحدة لأنني أعتقد أنه من أجل الحد من العنف الأسري فإن علينا تثقيف الأشخاص قبل إقدامهم على الزواج.

قد تتفاجئين أحياناً من ردود الناس عند طرح قضية الإيذاء. فقد يقول أحدهم: "لماذا تتحدثون عنه؟ دعونا نفترض الأفضل." فأقول: "أنا أتحدث بشكل عام. لماذا تتصرف بشكل دفاعي؟" أواجه هذا الرد لمجرد تعريف الإيذاء، دون أن أتحدث عن شخص بعينه. عند تقديم استشارة قبل الزواج، أخبر الأزواج عن الإيذاء العاطفي والإيذاء النفسي

^{٢٣} محمد ماجد هو الإمام والمدير التنفيذي لجمعية داليس الإسلامية (ADAMS) في ستيرلنغ، فرجينيا، وهو مسجد يخدم أكثر من ٥٠٠٠ أسرة، كما أنه يشغل منصب نائب رئيس الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية (ISNA).

والإعسار المالي، لكنني عندما أبدأ بشرح المفاهيم لهم، يتضايق بعض الرجال. ذات مرة وأنا أقدم مشورة لاثنتين مقبلتين على الزواج، قال لي الرجل: "ليتك لم تذكر مثل هذه الأمور. قد تظن الآن أنني أسأت معاملتها، ومهما فعلت فإنها ستتهمني بإيذائها. بصفتك مسلماً وإماماً، يجب عليك ألا تضع مثل هذه الأفكار في رأس المرأة. ما كان عليك أن تقول ذلك." كان هؤلاء أشخاصاً لم ينشأوا في أمريكا. ولقد أصبحت الاستشارة قبل الزواج أمراً ممارساً حتى في بعض بلاد المسلمين مثل الكويت والتوعية بالعلاقات الزوجية السليمة جزءاً من الدروس والمحاضرات العامة.

في مجتمعنا هنا، نصرّ أنه حتى لو كان عمر الشخص ٦٠ سنة، فإنه إن أراد عقد قرانه في جمعيتنا فإن عليه أن يخضع للاستشارة قبل الزواج. يتألف برنامج الاستشارة قبل الزواج من ست جلسات مدة الواحدة ساعة واحدة نناقش فيها العنف الأسري وعلامات الإيذاء، كما نتحدث بحضور الرجل عمّ على المرأة فعله في حال تعرّضها للإيذاء، وهذا ما يجعل بعض الرجال ينزعجون. لكنني أجد أن الشباب أكثر انفتاحاً مع هذه الأمور.

الأمر الآخر الذي أراه أحياناً لدى تجوّلي في الولايات المتحدة هو أن هناك انفصلاً بين الأئمة والمتخصصين في هذا المجال، فالكثيرون ينظرون بعين الريبة للأشخاص الذين يعملون في مجال العنف الأسري، فهم يعتقدون أنهم يسعون لتحطيم الأسر. لذلك فإن تناول الأئمة للعنف الأسري يشدّ من أزر المهنيين العاملين في الميدان والمرشدين الاجتماعيين وغيرهم، بل أحياناً يساعدهم في تحدي الأئمة في مناطقهم، وأحياناً منهم من يدعوني للحديث.

فقد دُعيت لأحد المجتمعات المسلمة منذ شهرين لتقديم تدريب حول العنف الأسري لمجموعة من النساء من الشرق الأوسط. سألتهن: "لماذا لا تدعين إمامكن؟" قلن: "كنا نود ذلك، لكنه لم يؤيد الفكرة. نريد منك أن تتحدث معه ليفهم أنه إن لم يدعم احتياجاتنا فإننا سنستعين بمصادر خارجية ونلجأ لشخص من الخارج ليتحدث معنا." عندما التقيت بالإمام بعد إحدى الصلوات، قال: "يسعدني أنك هنا في المسجد". تطرقت لمسألة عدم رغبته في التحدث مع النساء، فقال إنه لا يتحدث مع النساء حول العنف الأسري لأن بعض الرجال في مجتمعهم أخبروه أنه إذا تحدثت عن مسألة العنف الأسري فإنه في الواقع سيدعم الفكر النسوي. لكن بعد أن تحدثت معه قال: "حقاً؟ إذا كان الأمر كذلك، أنهن يشنكن من تعرضهن للضرب والإيذاء الجسدي، فإن من الضروري معالجة هذه القضية." لا شك أنه من المخجل له ألا يعترف بوجود مثل هذه القضايا، على الأقل أمام زميل أو إمام آخر، أو أن يُنظر إليه باعتباره إماماً لا يدعم ضحايا العنف الأسري.

والآن أصبحت الجمعية الإسلامية لأميركا الشمالية والدائرة الإسلامية لأميركا الشمالية ومنظمات بارزة أخرى تدعوني للتحدث عن العنف الأسري. لسبب ما، فإن بعض المنظمات الإسلامية والمساجد تشعر بأمان أكبر إذا كان المتحدث إماماً، فهي تخشى إن كانت المتحدث امرأة، لا سيما من ميدان مكافحة العنف الأسري، فإنها قد تقول أشياء غير مقبولة لعموم المسلمين.

لذلك، من الأمور التي أطرّق لها في محاضراتي مشروع الاستقرار الأسري، ودائماً أذكر الأخت شريفة الخطيب^{٢٤} رحمها الله التي عملت معها لأبيّن أنني أنا نفسي استندت من المعلومات التثقيفية المتعلقة بالعنف الأسري وأن على الإمام ألا يدعي معرفة كل شيء عن النزاعات العائلية. فقد أعرف المبادئ الواضحة للعدل والظلم أو عن حالات ضرب شخص لآخر، لكن لن يمكنني تحديد العنف الأسري أو الكشف عنه بدون تثقيف وتوعية حول هذا الموضوع. فعلى سبيل المثال، حتماً لا يعتقد الناس أن الإعسار المالي أو الإيذاء النفسي يعتبران من أشكال الإيذاء. أمامنا عمل كثير في هذا المجال، فعلى جميع الأئمة التعرف على جوانب العنف الأسري، وعلى جميع العاملين الاجتماعيين في المساجد أن يحصلوا على تدريب أساسي حول العنف الأسري ليتمكنوا من مساعدة الأشخاص الذين يلجأون لهم، بدلاً من محاولة الحكم عليهم أحياناً أو التعامل مع المسألة من خلال العادات والتقاليد غير المحمودة. برأيي، ينبغي أن يكون هناك استجابة معيارية أساسية من الأشخاص الذين يساعدون ضحايا العنف الأسري، بما في ذلك:

^{٢٤} أسست شريفة الخطيب (١٩٤٦-٢٠٠٤) مشروع الاستقرار الأسري، وهي إحدى رواد مكافحة العنف الأسري في المجتمعات الأمريكية المسلمة.

١. تأمين سلامة الشخص الذي يتعرّض للإيذاء، خصوصاً إذا كان الإيذاء جسدياً.

٢. تمكين الضحايا بأن يفهموا أننا نقف بجانبهم.

٣. تقديم المساعدة والمشورة والتوجيه والمساعدة القانونية لإحالة الضحايا لمن يمكنهم مساعدتهم.

إذا كان قادة المجتمع لا يفهمون هذه الجوانب الثلاثة الأساسية ويعتقدون أن النساء يلجأون لهم لمجرد الشكوى، فإن أقصى ما يقدّمونه هو أن يقولوا: "نشعر بالأسف من أجلك... حرام، أنت لا تستحقين هذا. لماذا فعل بك هذا؟" لكن ما يحدث بعد ذلك مهم جداً.

٤. حدثنا عن عمك كعضو مجلس إدارة معهد الثقة بالإيمان.

أعتقد أن عملي مع معهد الثقة بالإيمان غير نظرتي لأشياء كثيرة. في الواقع، بدأ الأمر مع الأخت شريفة الخطيب التي كانت شديدة المثابرة وأصرّت على أن أشارك في حركة مكافحة العنف الأسري عندما دعتني للانضمام لمعهد الثقة بالإيمان بدأت أفهم أن العنف الأسري ليس حكرًا على المجتمع المسلم وأن بإمكانني التواصل حوله مع زملائي من أتباع الديانات الأخرى.

هذا القاسم المشترك بحد ذاته يساعد عند الحديث عن العنف الأسري في المجتمعات المسلمة، فعندما نقول للمسلمين إن: "العنف الأسري ليس مشكلة في المجتمع المسلم فقط، بل هو مشكلة في جميع المجتمعات الدينية." عندها نتجنب تبنيهم لموقف دفاعي في هذا الشأن، ففي العادة يعتقد المسلمون أن الإسلام يتعرض لهجوم وأن التركيز غير مناسب سوى على المرأة، ولكن عندما نقول: "كنت مع حاخام أو قسيس وناقشت موضوع العنف الأسري ضمن مجتمعاتهم"، يقولون: "حسن، إنه يتعامل مع الموضوع من منظور أوسع، وليس مجرد أحد الأشخاص الذين يلقون اللوم على الإسلام ويحطّون من قدر المسلمين."

لا يميز العنف بين الناس، بمعنى أن هناك صبية صغاراً يتعرضون للإيذاء ومسنين أو رجالاً أو نساءً يتعرضون للإيذاء. لكن العنف الأسري يبقى في معظمه ضد المرأة، ٩٥٪ منه ضد المرأة^{١٢١}، والعنف الأسري لا يعرف سنًا ولا يعرف ثقافة ولا يعرف دينًا ولا يعرف وضعًا اقتصاديًا. عندما أقول مثل هذه الأمور، فإن الشخص ذو الدخل المنخفض أو الغني يدرك أن الأمر لا يتعلق به وحده، بل بالجميع.

عندما جعلني عملي مع معهد الثقة بالإيمان معروفًا على المستوى الوطني، شاركت في وضع إعلان وطني ضد العنف الأسري لجميع الأديان.^{١٢٢} عملنا على الإعلان لبعض الوقت، وكانت تجربة مثيرة للغاية لأن رجال دين من جميع الأديان قالوا: "لقد تمت إساءة استخدام النصوص لدينا لتبرير العنف ضد المرأة، ونحن ملتزمون جميعاً بوضع حد للعنف الأسري في مجتمعاتنا عن طريق تفسير نصوصنا بطريقة لا يمكن أن يساء استخدامها."

ولذلك، فإنني أعتقد أن معالجة قضية العنف الأسري بطريقة جماعية ووجود منظمة تعالish بين الأديان مثل معهد الثقة بالإيمان، يساعد كثيراً في تمكين أتباع الديانات المختلفة الذين يعملون في هذا المجال، فهم يتألفون مع بعضهم البعض ويتبادلون الخبرات. لقد تعلمت الكثير من الطائفة اليهودية والطائفة المسيحية في كيفية تعامل كل منهما مع العنف الأسري، وتعلمت كيف تستخدم كل منهما ديانتها لمعالجة هذه القضية وشدّ أزر الناس الذين عانوا من العنف الأسري.

٥. هل مررت بنقطة تحول حفرتك لتصبح نصيراً لهذه القضية؟

أعرف نساء كثيرات عانين من العنف الأسري، وأعرف إحداهن والتي عندما لجأت إلى المحكمة لم تحصل على الطلاق إلا بعد عشرة أعوام، وفي النهاية ساعدتها عائلتها على مغادرة السودان. لقد رأيت العنف الأسري وأعرف ما هو لأن الكثير من النساء اللاتي يعانين من العنف الأسري يحضرن إلى مسجدي.

لقد كانت نقطة التحول في الحقيقة عندما بدأت الأخت شريفة الخطيب تروي لي قصصاً عن نساء في المجتمع وتحيل نساء من المجتمع إلي، عندها أصبحت أكثر وعياً بمستوى العنف الأسري في المجتمع وشعرت أن التصدي للعنف الأسري يتطلب أكثر من مجرد إصدار فتوى أو جلسة إرشاد. كان لا بد من العمل بشكل متسق وتوفير التدريب البناء للأئمة وتمكين الناس الذين يعملون في المجال وإيجاد الموارد داخل المجتمع وإخراج النساء المعنفات من أوضاعهن وإرشادهن خطوة بخطوة ليصبحن قويات وحتى الطلب منهن أن يصبحن ناشطات في جهود الحد من العنف الأسري.

القضية الأخرى التي أفلقتني كثيراً كانت عدد المكالمات التي كنت أتلقاها من الملاجيء. كانوا يتصلون بي من الملاجيء ويقولون: "لدينا امرأة هنا لا تتحدث الإنجليزية وهي مصرّة على تناول طعام معين. نود منك التحدث معها." إذا كانت تتحدث العربية، كنت أتحدث إليها بالعربية، وإذا كانت تتحدث بالأوردو، كنت أتصل مع آخرين في مجتمعنا يعملون في مجال العنف الأسري. لقد أصبح هؤلاء النشاط مفيداً للغاية.

من الضروري والمهم أن يدرك المرء أنه سيخضع للحساب يوم القيامة إذا لم يساعد المظلومين. هناك حديث أخافني عندما فكرت فيه من منظور العنف الأسري، وأقلقتني عندما فكرت فيه من منظور المساءلة. قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم): "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فقال رجل: أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إذا كان ظالماً كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره."

لذلك فإن قضية المساءلة تشكل بعداً آخر، ليس فقط من أجل رفاه المجتمع ولكن أيضاً للبعد الروحي. هناك مساءلة أمام الله سبحانه وتعالى، لأن الله عادل رحيم، وبالتالي يتوقع منا أن نتصرف بعدالة ورحمة بأن ندافع عن المظلومين ونكون رحماً معهم.

٦. برأيك ومن خلال عملك مع مجتمعات المسلمين ما مدى انتشار العنف الأسري فيها؟ وما هي أسبابه وبعض

العوامل الرئيسية التي تساهم فيه؟

حاول المسلمون لفترة طويلة دفن رؤوسهم في الرمل والادعاء بأن العنف الأسري لا يحدث في مجتمعاتهم، لكنه أكثر انتشاراً مما كنا نعتقد. هذا الأسبوع، على سبيل المثال، تحدثت إلى ثلاث نساء يعانين من العنف الأسري. كنا نتحدث عن نفس الموضوع الأسبوع الماضي. في الواقع، إحداهن لم تكن تدرك أنها تتعرض للإيذاء. كان زوجها يأخذ بطاقة الائتمان منها ولا يسمح بشراء ما تحتاجه. ومع أنه لم يكن هناك إيذاء بدني، لكنها لم تكن تدرك أنها تتعرض للإيذاء عاطفي وذهني ومالية، فالبعض لا يعرفون العنف الأسري إلا بالإيذاء البدني.

إذا شملنا جميع جوانب العنف الأسري، فإنه شائع في مجتمع المسلمين لدرجة مفرقة. على سبيل المثال، أجريت تدريباً بالمركز الإسلامي في واحدة من المدن القريبة. بعد دورة التدريب والتوعية، جاءتني بعض النساء وقلن: "لقد دعوناك لأن بعض النساء في مجتمعنا يتعرضن للضرب من الرجال. لكن الآن بعد أن ذكرت كل هذه الأشكال الأخرى من الإيذاء، أدركنا أن كثيراً منا يعانين من أحد أنواع العنف الأسري." لذا، من المهم للغاية أن ندرك مدى انتشار العنف الأسري في مجتمع المسلمين لنتمكن من التصدي له. إنه شائع للغاية للأسف. ويحاول الرجال الذين يضرّبون زوجاتهم تبرير إيذائهم لهن، ويستخدمون عدداً من المبررات مثل:

١. "لقد استفزّنتني"، أو "إنها لا تسمع كلامي"، أو "يجب أن تفهم مكانها"، أو "هي جلبت ذلك على نفسها"، أو "الدين يبيح ذلك، الإسلام يبيح ذلك، هناك آية في القرآن الكريم، ما الذي تتحدث عنه أيها الإمام؟ القرآن يبيح لنا أن نضرب النساء."

٢. "أنا لم أؤذها لها، كيف يمكنها أن تسمّي هذا إيذاء؟" أي النكران. يقوم الشخص بالإيذاء ولا يعترف مطلقاً أنه فعل ذلك. "أردت أن أؤدبها حتى تكون قدوة لأطفالها. ما كان عليها أن تفعل ذلك، لذلك أردت أن يعرف أطفالها أنه حتى أهمهم يمكن أن تعاقب لو فعلت ذلك."

٣. "فعلت ذلك لأنها سببت لي إرجاءاً اجتماعياً. أريدها أن تُظهر سلوكاً حسناً في المجتمع، لذلك فإن هذا أفضل لنا. أريد أن أحل مشاكلنا في البيت لكي لا تعاود القيام بما قامت به أمام الناس مرة أخرى."

٤. مسألة أهل الزوج: "لم تحترم والدتي، وأردت أن ترى والدتي أنني لا أقدم مشاعر زوجتي على مشاعرها. قالت والدتي إنها لم تحضر لها طعامها في الوقت المناسب"، وهلم جراً، أو "أردت أن أؤدب زوجتي أمام والدتي لتدرك أنني لا أفضل زوجتي عليها."

٥. "إنها تظل تكرر نفس الأخطاء. تحدثت معها مرة، وقلت لها إنني انتهيت من الكلام والآن حان وقت العصا."

٦. "لم تمنحني حقوقي بالعلاقة الجسدية، لذلك أصبت بالإحباط. غضبت لأنها تعرف ما أحتاج إليه ولم تقم به، لذلك ضربتها لأنني لم أكن سعيداً عاطفياً وجسدياً."

٧. "لقد فقدت وظيفتي، وهي تعرف أنني أمر بظروف سيئة. كان عليها أن تفهم مشاعري كرجل عاطل عن العمل، كان عليها أن تعرف أن عليها ألا تتذمر أو تتحدث معي. لقد حدّرتها لكنها بدأت بالتحدث معي." ومن الأعداء المشابهة إما عن فقدان العمل أو المال أو التجارة وما إلى ذلك.

لقد سمعت جميع الأعداء في مجتمع المسلمين، لكن أياً منها لا يبرر ضرب أحدهم، ولا أي منها على الإطلاق. وهذه هي الرسالة التي أود أن أوصلها للذين يعتقدون على زوجاتهم أزواجهن: "نحن نعرف أعداركم، ونعرف ما يمكن أن نقوله، ولكن أياً من تلك الأشياء، سواء شرعاً أو معنوياً، تبرّر تصرفكم عندما تضربون شخصاً آخر."

وعلى فكرة، هذا فقط فيما يتعلق بالإيذاء الجسدي. فيما يتعلق بالإيذاء العاطفي، قد تأتي امرأة وتقول: "زوجي لم يحمي معي"، أو "لم يمارس علاقة جنسية معي منذ سنة." في الحالة التي استمر فيها الوضع لسنة، سألت الزوج: "لماذا تحرم زوجتك من العلاقات حميمة؟" فأجاب: "الإسلام يقول لنا أن نهجرهن في الفراش^{١٣}، لكنني مهما هجرتها فلم أر أي تغيير في سلوكها، ظللت أهجرتها ثم انتقلت إلى غرفة نوم أخرى". فقلت له: "لماذا لا تطلقها إذن؟" قال: "إن طلقته، سأكون قد أعطيتها ما تريد. مستحيل أن أعطيها ذلك". لكن المرأة قالت: "لا أريد أن أتطلق". وهكذا كان الزوج يعرف أن زوجته لا تريد الطلاق لكنه كان مستعداً للبقاء في ذلك الوضع إلى أجل غير مسمى. وحتى لو كانت الزوجة تريد الطلاق، فإنه كعقاب لها ما كان ليمنحه لها. لكن في الحالتين، فإنه هو المسيء.

من القضايا المثيرة للاهتمام للغاية بنظري هو الإيذاء الروحي. مقارنة بالإيذاء العاطفي والنفسي، فإنني أجد الإيذاء الروحي أكثر تدميراً لكثير من النساء اللاتي يأتين إلى مكتبي، فهن يقلن لي إنهن خائفات للغاية من نار جهنم وخائفات من عقاب الله، ويقلن: "كنت أعتقد أنه حرام عليّ أن أعارضه"، أو "كنت أظن أنه حرام عليّ أن أقول له ألا يتحدث معي بتلك الطريقة"، أو "كان يقول لي إنني إذا لم أتم معه، فإن الملائكة ستظل تلعنني طيلة الليل^{١٤}"، أو "لقد تعلمت أن الطاعة مهمة لأن القرآن الكريم والحديث الشريف يطلبان ذلك كما يقول زوجي دائماً، لذلك فإنني أقوم بكل ما يطلبه مني". أحياناً، قد يطلب الأزواج من النساء القيام بأمور غير صحيحة شرعاً، وخصوصاً في العلاقات

الحميمة. إن أحد أشكال الإيذاء في مجال العنف الأسري هو الاغتصاب الزوجي، وبعض المسلمين في مجتمع المسلمين لا يقبلون أو يدركون أن مثل هذا السلوك يحدث في مجتمع المسلمين، والبعض لا يعتقد أن هناك شيء اسمه الاغتصاب الزوجي.

كما يستخدم الكثير من المسلمين الإسلام كذريعة للإيذاء الروحي حيث يستخدمون تعدد الزوجات كشكل من أشكال الإيذاء النفسي. تعدد الزوجات في مجتمع المسلمين هو شكل من أشكال الإيذاء برأيي، عندما يتزوج رجل امرأتين ويجعلهما تسكنان معاً في شقة بغرفة نوم واحدة أو اثنتين فقط، وأحياناً حتى يمارس علاقته الحميمة مع زوجة أمام الزوجة الأخرى. الكثير من الرجال المسلمين المتزوجين من أكثر من امرأة يستخدمون زوجاتهم ضد بعضهن البعض، بحيث تبدأ الزوجات بالإيذاء لبعضهن البعض جسدياً أو لفظياً، الأمر الذي يخلق نوعاً من الضوابط والموازن عندما يكافئ الزوج زوجة لإيذائها الزوجة الأخرى. فمع أن الإيذاء لا يأتي مباشرة من الزوج، إلا أن الزوج يقبل أو يسمح به، أو حتى يساعد الزوجات على إيذاء بعضهن البعض. من الأشكال الأخرى للإيذاء الديني أو الروحي هو أن يتزوج الرجل امرأة من دون عقد زواج ويقوم بعلاقة جسدية معها وأحياناً حتى ينجب منها أطفالاً ومن ثم يتركها دون الوفاء بالتزامه لها. يؤسفني أن أقول إن هناك الكثير من إساءة استخدام الدين، الإسلام، في مجتمع المسلمين عندما يتعلق الأمر بالعلاقات.

في معظم حالات العنف الأسري التي اطلعت عليها، يستخدم الناس الدين لتبرير الإيذاء. أقترح أن على المسلمين التصدي لمسألة تعدد الزوجات، وخاصة في المدن الداخلية، وحتى من قبل بعض الأئمة. وفي كثير من الأحيان هناك إغسار مالي حين تعمل الزوجات لإعالة الأسرة في حين لا يوقر الزوج سوى العلاقة الجسدية. من المهم جداً تمكين المرأة لكي لا تقبل مثل هذا السلوك في مجتمع المسلمين. وأنا أدعو الأئمة لاتخاذ موقف حيال هذه المسألة وأن يشرحوا أن هذا غير مقبول في الإسلام وأن استخدام الإسلام بهذه الطريقة سيجعل الناس ينفرون من الإسلام.

بعض الناس تركوا الإسلام بعد أن رأوا كيف يستخدم الرجال الدين لتبرير العنف الأسري. ليس ذلك فحسب، الأسبوع الماضي جاءت سيدة إلى مكنتي كانت اعتنقت الإسلام لأنها اتخذت بعمل زوجها كناشط وجهوده في العمل الإسلامي. أررتي صوراً للدمار الذي ألحقه بشقتها. هو لم يضربها، لكنه دمر شقتها وأرسل لها رسائل بريد إلكتروني مؤذية عاطفياً ونفسياً. قال لها والداها: "لماذا تريدان أن تصبحي جزءاً من دين يدعم هذه التصرفات؟" هؤلاء الناس يسيئون لصورة الإسلام، وخصوصاً عندما يستغلون الأشخاص العائدين إلى الملة. هؤلاء الرجال يتصرفون وكأنهم أكثر الناس وقاراً ودينياً ويقولون للنساء: "أنا مسلم ملتزم"، فما يكون من السيدات الشابات إلا الوقوع في الفخ والزواج من هذا النوع من الرجال.

لذلك، نصيحتي للنساء اللاتي يعتنقن الإسلام هي: "لا تتزوجن أول رجل ترينه في المسجد. لا تتدعن بالشخص الذي يقول "أنا مسلم"، فنقاء الإنسان ليس بالأقوال، وليس هناك شخص تقي أو نقي بالكامل. عليكما أن تحصلا على الاستشارة قبل الزواج. لا تتزوجن فور دخولكن في الإسلام، عليكن أن تفهمين الدين جيداً بحيث لا يتمكن أحد من الإيذاء لكن دينياً أو روحياً ويسيء تفسير الإسلام." أعتقد أن ما تتعرض له الشابات العائدات إلى الإسلام من إيذاء هو أحد أهم الجوانب التي لا يتم تناولها عادة.

٧. ما هي أكثر أشكال العنف الأسري شيوعاً؟ ومن خلال تجربتك، ما أثر العنف الأسري على مجتمعات

المسلمين؟

لسوء الحظ، لا يرى الأئمة سوى الإيذاء الجسدي معظم الوقت، ومن الصعب عليهم اكتشاف العنف الأسري إلا عندما يكون جسدياً لأن الإيذاء الجسدي أكثر وضوحاً ويمكنهم رؤية الكدمات. لقد رأيت الكثير من حالات الإيذاء الجسدي، ولكن في العادة عندما يصل الأمر إلى حد الإيذاء الجسدي، فتأكدوا أن جميع أشكال الإيذاء الأخرى حدثت

مسبقاً. النساء يلجان لنا بعد أن يكنّ قد أنهكن عاطفياً تماماً. فعندما يكن محطّات ومدمرات نفسياً عندئذ يلجان لنا، ولكن هذا بعد أن يكنّ قد تعرّضن للضرب.

للغف الأسري تأثير كبير على الأسرة. لقد رأيت أطفالاً لزوجات معنّفات وقدمت لهم الإرشاد. هؤلاء الأطفال يشعرون بالغضب أو الخوف أو الانسحاب أو الخجل، وخصوصاً عندما يكون الغف الأسري مشكلة كبيرة في بيوتهم. أحياناً تشكو لي الأمهات من أن مشاكل سلوكية بدأت تظهر لدى أطفالهن، فالبعض منهم يواجه مشاكل مع القانون لأنهم يشعرون بالاستياء مما يشهدونه في بيوتهم من إيذاء ويرغبون بالتعبير عن استيائهم، فيكون رد الفعل عنيفاً. وقد يتمرد الأطفال في المدرسة، أو يقومون بأمر غير قانونية في بعض الأحيان، مثل بيع المخدرات، حتى لو لم يكونوا من عائلة فقيرة. فعندما يبيعون المخدرات، لا يكون ذلك لأنهم بحاجة للمال بل لمجرد التمرد وإرسال رسالة إلى أهلهم بالقول: "أنتم تؤذونني، والآن أستطيع أن أرد لكم الأذى".

ورأيت كذلك إيذاء مضاعفاً مرتين وثلاث مرات في نفس المنزل. ماذا أعني بهذا؟ يؤدي الرجل لزوجته، فتترك الزوجة البيت أو ينفصلان، ثم يطلب الرجل من الابن تأديب أمه، لذلك قد تتعرض الأم للضرب على يد ابنها. جاءت إحدى الأمهات إلي وهي تنزف لأن زوجها أقتع ابنها أن عليه أن يضربها. وفي نفس العائلة، أرادت الابنة أن تتزوج، ولكنه لكي ينتقم من الأم، كان الأب يرفض كل شاب يتقدم لخطبتها. وحتى عندما تقول الأم: "نعم"، كان الأب يقول: "لا"، فقط ليغيظ الأم. وهكذا كان الأب يؤدي الأم بمنع ابنته من الزواج. كما لو أننا رمينا حجراً على سطح الماء لئري أثره، فإن التموجات تصبح أوسع فأوسع فأوسع. يفزعني فعلاً أن أرى ذلك، وقلبي ينفطر أحياناً عندما أرى حالات الغف الأسري. على سبيل المثال، تمر بعض النساء بأحمال صعبة لأنهن يتعرضن للضرب ويبكين طوال الوقت، وأحياناً يلدن أطفالاً خداج بسبب الضرب والخوف والمشاكل الطبية الناجمة عن إيذاء أزواجهن لهن.

يمكنني أيضاً أن أحدثك عن الأثر طويل الأمد للإيذاء على نظرة الشباب للزواج. فنحن في الزواج نفتدي بأهلنا، وإذا كانت العلاقة بين أبائنا وأمهاتنا جيدة ربما ستكون علاقاتنا جيدة أيضاً. بعض الشباب لديهم الشجاعة الكافية للتأكد من عدم تكرار أخطاء أهلهم، والكثير يختارون عدم تكرار أخطاء أهلهم لأنهم حصلوا على تثقيف حول العلاقات خارج نطاق أسرهم. على سبيل المثال، أعرف أشخاصاً يحضرون دورات إسلامية ويسافرون مع غيرهم من الشباب لحضور فعاليات إسلامية، وهكذا يمكنهم التعرف على العلاقات النموذجية والتصميم على عدم تكرار ما فعله أهلهم. أما الشباب الذين يفتقرون لنظام الدعم هذا ولا يرون سوى نموذج الأسرة المؤذية يميلون إلى تكرار نفس الأخطاء، وهكذا تتكرر الدورة.

٨. ما دور القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في المساعدة في مكافحة الغف الأسري؟ ما هي بعض الأمثلة

التي تستخدمها عندما تحاول التعامل مع حالات الغف الأسري أو الإيذاء؟

أبدأ دائماً بتعريف مفهوم الزواج بحد ذاته ليدرك الناس متى لا يكون زواجهم كما يجب. أختار الآية من القرآن الكريم، من سورة الروم، آية ٢١، والتي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: "ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون". أستخدم هذه الآية كنموذج ومثال، وأسميها الإطار المرجعي أو القيم الأساسية للزواج. فإذا عرفنا القيم الأساسية وما يجب أن يكون عليه الزواج عندئذ يمكننا أن نحدّد متى لا يكون الزواج يسير كما يجب. الزواج الناجح كالصداقة. وكثيراً ما يقول الحضور: "زواجي ليس هكذا". أستطيع أن أرى أنه لا رحمة أو لطف فيه"، وعندما أقول "رحمة" فأنا أعني أنه لا ينبغي لأحد إيذاء آخر لفظياً أو جسدياً. من ثم أشرح معنى الحب وما هي الأمور التي تعكس عدم وجود حب، وأعرّف السكينة. بعد المحاضرة، يقول لي البعض: "الدي مشكلة". أحياناً يبدأ بالبكاء ويمكنني أن أشعر على الفور أن هناك خطباً ما. ما يحدث في المحاضرة يدقّ جرس إنذار داخلهم ويجعلهم يصحون، ويساعدهم على معرفة ما يقوله الإسلام حقاً عن الزواج وأن ما يمرّون به لا شأن له بهذه العلاقة.

لذلك، الجانب الأول هو أنني أستخدم الكثير من الآيات القرآنية التي تصف المفهوم المثالي للعلاقات السلمية. من ثم أتحدث عن وجهة نظر القرآن الكريم بشأن حل النزاعات وكيف كان سيدنا محمد (صلعم) يتصرف عندما يواجه مشكلة مع زوجته عائشة مثلاً، أو عندما كانت ابنته فاطمة تواجه مشكلة مع زوجها علي. عندما أتحدث عن نموذج حل النزاعات في القرآن الكريم أو من سنة سيدنا محمد (صلعم)، يدرك الناس أن العنف ليس وسيلة لحل النزاعات. هناك الكثير من الأدبيات حول مسألة حل الصراعات من السنة النبوية والقرآن الكريم.

الجانب الثاني هو أنني أنظر في الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي عادة ما يسيء الناس تفسيرها. على سبيل المثال، قد يستشهد الناس بأحاديث تبدو مهينة للمرأة، وهناك من يستخدمها للتقليل من شأن زوجته وإيذائها عاطفياً ونفسياً. ولكن بعض الأحاديث التي يستشهد بها الناس ليست صحيحة أو يتم استخدامها خارج سياقها. ولذلك، فإن واجب الإمام هو وضع الأمور في نصابها وتصويب الأخطاء عن طريق ترجمة تلك المقاطع من القرآن الكريم والسنة النبوية وتفسيرها وشرحها. يجب أن يقول الأئمة إن تلك الأحاديث ليست صحيحة عندما يبدأ الناس باستخدامها، خصوصاً تلك الأحاديث التي تتناقض بشكل واضح مع كون سيدنا محمد جاء رحمة للناس، ومفهوم الزواج بأنه حب ورحمة وسكينة. على الأئمة أن يقوموا بتوعية الناس عندما يأتي أحدهم ويقول: "على المرأة أن تلبى رغبات زوجها مهما كان"، أو "على المرأة أن تسجد لزوجها". استخدام هذه النصوص مقلق ويجب التصدي له.

٩. عندما يتناهى لعلمك أن إحداهن تتعرض للإيذاء، كيف تساعدتها؟ هل يوجد نظام داخل المسجد؟ شبكة معيئة تستخدمها؟

نحن نستعين بواحدة من مؤسسات الخدمة الاجتماعية المحلية واسمها مؤسسة الإيمان أو (FAITH) (مؤسسة المساعدة المؤقتة الملائمة والفورية)، ولكنني أيضاً أبدأ لإحدى العضوات الناشطات في مشروع الأسر السلمية، وهي سلمى أبو جديري بوصفها معالجة نفسية^{٢٥}. كنت في السابق أستعين بالأخت شريفة الخطيب، رحمها الله، وكانت تتحدث مع النساء. سبحان الله، لقد كانت تتمتع بثروة من المراجع في رأسها، ويمكنها بكل سهولة أن تحيل الأشخاص إلى الخدمة الاجتماعية أو الأسرية المناسبة.

عندما تتعرض امرأة للإيذاء، فأنا أدمع قرارها بترك بيتها، فبعض الأزواج يواصلون إيذاء زوجاتهم حتى وهم منفصلون بدعوى أنهن لا يزلن زوجاتهم ولهم حقوق عليهن. في مثل هذه الحالات، نقوم بالتطليق، طلاقاً شرعياً، وهكذا يمكننا أن نقول للزوج: "إذا كنت ستحاول إيذاء زوجتك من خلال المطالبة بحقوقك الشرعية، فما عادت تلك الحقوق موجودة." ولكن القيام بهذا خطأ يجلب الكثير من المشاكل للإمام، فالبعض سيتهمه بتدمير الأسر وما إلى ذلك، ولكن علينا أن نقوم بالصواب ونتبع سنة سيدنا محمد (صلعم). لذلك علينا أن نمنح النساء المعنفات الدعم الديني الذي يحتاجه، بما في ذلك الإحالة إلى الخدمات الاجتماعية المختلفة. في المركز الإسلامي، نقدم مساعدات مالية للنساء أحياناً عن طريق تسديد تكاليف شراء الطعام أو الإيجار أو غيرها من الأمور.

١٠. عند أي حد من الإيذاء تتصح النساء بترك بيوتهن؟ هل يجب أن يكون بدنياً، وإذا لم يكن بدنياً، فكيف تتوصل لقرارك؟

غالباً ما لا ترغب المرأة بترك بيتها عندما لا يكون الإيذاء بدنياً وكل ما ترغب به هو إصلاح زوجها، عندئذ أقول: "يجب أن ألتقي بزوجك أولاً لأرى إن كان قابلاً للإصلاح أم لا". ألتقي مع الزوج أولاً وعادةً أطلب من سلمى أبو جديري مساعدتنا من خلال توفير العلاج النفسي. إذا استنتجت أن العلاقة لن تتحسن، فأقول لها مباشرة بعد الاطلاع

^{٢٥} سالمة القاضي أبو جديري هي المديرية المشاركة لمشروع الاستقرار الأسري وتعمل معالجة نفسية مرخصة.

على كل شيء: "القرار بيدك الآن". وحتى في حالة الإيذاء غير البدني، لا ينبغي علينا أن نتخذ القرار نيابة عنها، لأنها في النهاية قد تعود وتقول: "أنت قلت لي أن أفعل ذلك"، لذلك فنحن نعرض عليها خياراتها المختلفة.

في حالات الإيذاء البدني، نقول لهن: "يجب أن تكوني بأمان. أنصحك أن تكوني بأمان". أما بالنسبة لحالات الإيذاء العاطفي والنفسي، فأقول للمرأة إنها تتعرض للإيذاء وإن عليها أن تتخذ قراراً. إذا اعترف زوجها بالإيذاء وتوقف عنه، عندئذ يمكن إحداث تغيير من خلال العديد من جلسات الإرشاد. في نهاية المطاف، القرار يعود للمرأة، لكن علينا شدة أزرها لتتمكن من اتخاذ القرار بنفسها، لذلك أحاول إزالة ما قد يشعرون به من ذنب لترك أزواجهن، وخوفهن من كون الطلاق من المحرمات الثقافية، فأقول لهن: "إن الإسلام يبيح الطلاق. لا عيب بالحصول على طلاق." لذلك أفعل ما بوسعي لمساعدتهن، فنحن نقدم لهن كل الدعم المعنوي والديني، كما نخبرهن أن الجمعية يمكن أن تساعدن ماليًا، ثم أترك الأمر لهن وأدعهن يتخذن قرارهن بنفسهن.

١١. برأيك، ما أكبر التحديات في المجتمعات المسلمة التي تحول دون مكافحة العنف الأسري؟

١. الاعتراف بوجود العنف الأسري.
٢. يعتقد الكثير من المسلمين أن الأشخاص الذين يعملون في هذه القضية يكونون ضغينة ضد الرجال، وللأسف منهم من يتحمل ضد الناجيات اللاتي يصبحن من الناشطات في هذا المجال ويقولون إنهن يعانين من مشاكل نفسية ويفعلن ذلك بالرجال لأنهن مطلقات ويسعين للانتقام.
٣. الخوف من أن الذين يعملون ضد العنف الأسري هي جماعات نسوية راديكالية وأنهن أصلاً على خطأ ومناوئات للإسلام.
٤. بعض المسلمين يعتقدون أن الأئمة الذين يساعدون النساء المعتقات لا يعون جيداً مفهوم حفظ الأسرة أو لا الذي يدعو له الإسلام، وهم يظنون أن هؤلاء الأئمة يسيئون فهم مبدأ حماية الأسرة والحفاظ عليها.
٥. تعريف الأسرة ليس امرأة ورجلاً يعيشان معاً ويحملان اسم العائلة نفسه وأطفالاً. كلمة أسرة في اللغة العربية تعني "يحمي" أو "الدرع القوي"، فبدون درع لا يوجد حماية ويكون الشخص مكشوفاً للمشاكل، أو اللباس كما في قوله تعالى في سورة البقرة، آية ١٨٧: "هن لباس لكم وأنتم لباس لهن"، فأنا أقول للناس إنه إذا تمزق اللباس أو تعرض للحرارة، فإنه سينكمش ولا يعود بالإمكان استخدامه، لذلك فإننا [الأئمة والدعاة] لسنا من تسبب بالوضع أصلاً.

١٢. ما الذي يمكن للأئمة ورجال الدين وقادة المجتمع المحلي وأفراد المجتمع والشباب عمله للحد من العنف

الأسري في المجتمعات المسلمة؟

١. يجب أن يكون معلوماً في جميع المجتمعات المسلمة أن الإمام وقادة المجتمع اتخذوا موقفاً وأنهم يدعمون النساء الناجيات من العنف الأسري أو اللاتي ما زلن يتعرّضن له.
٢. ينبغي التأكيد على التعاليم الدينية من خلال المنصات والمنابر، ولا ينبغي علينا أن نقبل أو نتسامح مع أي شخص يستخدم المنبر للحط من قدر المرأة لأن ذلك يخلق بيئة تسهل الإيذاء.
٣. من المهم جداً أن يتعلم الشباب في المدارس والحلقات الدينية مناهج الحب والعطف والاحترام لأفراد أسرهم.

- ٤ . ينبغي استخدام حلقات الدارسة الخاصة بالنساء في المسجد كمننديات لتمكين النساء وتعريفهن بحقوقهن.
- ٥ . ينبغي على المساجد تقديم المساعدة المالية وغيرها من أشكال المساعدة للنساء اللواتي يتعرضن للعنف أو الأذى ، حتى لو كنّ زوجات لأعضاء في مجلس المسجد. فتعامل المسجد مع مسألة العنف الأسري لا ينبغي أن يتأثر بأصحاب النفوذ في المسجد أو بمن يملك مالا أكثر. كما لا ينبغي أن يُعتبر ذلك معياراً في مساعدة النساء. يتعين علينا أن ننظر في المفهوم العدالة في الإسلام لنتمكن من الدفاع عن العدالة، حتى لو كان ذلك على أنفسنا، كما في قوله تعالى في سورة النساء، آية ١٣٥: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِّمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَ الْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللّٰهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللّٰهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا" أعتقد أن على الناجيات من العنف الأسري مخاطبة المجتمعات المسلمة في مختلف المحافل، فهن عندما يتحدثن عن تجاربهن الخاصة فإن المجتمع سيتنبه لحالته الفعلية.
- ٦ . علينا أن نقدم الإرشاد والنصيحة لأطفال النساء الناجيات من العنف الأسري ومنحهم بيئة محبة في المجتمع ليشعروا بالدعم.
- ٧ . على الأئمة في كل منطقة توقيع إعلان لمكافحة العنف الأسري وإشهاره فذلك من شأنه تقوية الجميع.
- ٨ . على المسلمين أن يفهموا أن إنفاذ القانون والأشخاص المنوط بهم إنفاذ قوانين الحد من العنف الأسري لا يقلون أهمية عن الإمام، فالإمام لا يملك سلطة قانونية، وبالتالي لا عيب في استدعاء الشرطة لإنقاذ أحدهم.
- ٩ . تأليف كتاب مثلما تفعلون الآن.

المراجع

- Family Violence Prevention Fund^١
(Heise, Ellsberg, and Gottemoeller 1999)^٢
(Garcia-Morena et al. 2005).^٣
(Alwani and Abugideiri 2003)^٤
(Alkhateeb, Ellis, and Fortune 2003)^٥
(Nimer 2002)^٦
(Abugideiri 2005b)^٧
(S. Alkhateeb 2002)^٨
- ^٩ دكتوراه في الفقه وأصوله من الجامعة العالمية الإسلامية في ماليزيا.
^{١٠} السلمي، عياض، استدلال الأصوليين بالكتاب والسنة على القواعد الأصولية. الرياض: ط١، ١٤١٨هـ.
^{١١} عارف، نصر محمد، نظريات التنمية السياسية. هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢م، مرجع سابق، ص٢٠٦ وما بعدها.
^{١٢} الأصفهاني، الراغب، تفصيل النشأتين، وتحصيل السعادتين. ص٩٠.
الأصفهاني، أبو الراغب، الذريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق: د. أبو اليزيد العجمي. القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م.
^{١٣} صالح، أماني. "قضية النوع في القرآن: منظومة الزوجية بين قطبي الجندر والقوامة". المرأة والحضارة. العدد ٣ (شعبان/١٤٢٣هـ، أكتوبر ٢٠٠٢م).
- ^{١٤} صالح، أماني، قضية النوع في القرآن: منظومة الزوجية بين قطبي الجندر والقوامة، جمعية دراسات المرأة والحضارة، القاهرة: عدد ٣ شعبان/١٤٢٣هـ، أكتوبر ٢٠٠٢م، ص٢٢-٢٣.
^{١٥} Lois Lamy' Al-faruqi, *Women, Muslim Society and Islam* (Plainfield, Ind, American Trust Publications, 1988).
^{١٦} Lois Lamy' Al-faruqi, *Women, Muslim Society and Islam* (Plainfield, Ind, American Trust Publications, 1988).
^{١٧} صالح، أماني، مرجع سابق، ص٢٩.
^{١٨} الأصفهاني، المفردات، مرجع سابق، ص٥١٦-٥١٧.
^{١٩} راجع كتابنا: زينب علواني، قراءة واقعية في تفعيل مقاصد الشريعة في قضايا الأسرة في أمريكا. تحت الطبع.
^{٢٠} المرجع السابق، ص١١٢-١١٣.
^{٢١} انظر: مصطفى، هند، مرجع سابق، ص٥٧-٥٨.
^{٢٢} هذا الحديث سبق تخريجه في هذه الدراسة.
^{٢٣} قطب، سيد. في ظلال القرآن. القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٩٧١م، ج١، ص٢٤٠.
^{٢٤} الرازي، فخر الدين. مفاتيح الغيب، الأميرية، ١٢٨٩هـ، ج٢، ص٢٤٦ وما بعدها. الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، بيروت، دار الكتب، ٨١/٦ وما بعدها.
ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء، اسماعيل بن عمرو. تفسير القرآن العظيم. قدم له: عبد القادر الأرنؤوط. دمشق: مكتبة دار الفحاء للطباعة والنشر والتوزيع - الرياض مكتبة دار السلام، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج١، ص٣٩٨.
- ^{٢٥} ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مرجع سابق، ص٣٧/٥ وما بعدها.
^{٢٦} انظر: السيد محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام، مرجع سابق، ص٤٨ وما بعدها.
^{٢٧} الأصفهاني، المفردات، مرجع سابق، ص٤١٣.
^{٢٨} رواه البخاري، كتاب النكاح، رقم الحديث ٤٨٢٧ موسوعة الحديث.
^{٢٩} دراز، محمد عبدالله. دستور الأخلاق في القرآن، مرجع سابق، ص١٣٧ وما بعدها.
^{٣٠} ابن جرير الطبري، جامع البيان وتأويل القرآن، تقديم أحمد محمد شاكر، القاهرة: دار المعرفة، ١٩٥٠م، ج٤، ص٥٣١-٥٣٨. القرطبي، أحمد بن أبي بكر. الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الكتب المصرية، ودار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧م، ٣/١٢٤ وما بعدها.
^{٣١} رضا، محمد رشيد. تفسير المنار. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ج٢/٣٧٥.
^{٣٢} شلتوت، محمود. تفسير القرآن العظيم. القاهرة: ط٥، ١٩٧٣م، ص١٧٤.
^{٣٣} راجع كذلك كتاب الشيخ محمود شلتوت. الإسلام عقيدة وشريعة. ط٦، ١٩٧٢م، ص١٧٣.
^{٣٤} انظر: هبة رؤوف عزت، مرجع سابق، ص١٩٩.
^{٣٥} الأصفهاني، المفردات، مرجع سابق، ص٣٨١ وما بعدها.
^{٣٦} رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب: وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ج٦، ص١٥.
^{٣٧} وانظر: عبد الحليم أبو شقة، تحرير المرأة في عصر الرسالة. الكويت: دار القلم، ج٥، ص١٠٣.
^{٣٨} ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار صادر/ دار بيروت للطباعة والنشر، ج٥، ص٤١٨.
^{٣٩} - محمد بدر، المساواة بين الرجل والمرأة في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص١ وما بعدها.
^{٤٠} - سيد قطب، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط١٦ ١٩٨٣م، ٢٧/١.
^{٤١} - سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، القاهرة، دار الشروق، ط٧، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
^{٤٢} - محمد دروزة، المرأة في القرآن والسنة، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، ١٩٨٠م، ط٢، ص٢٩ وما بعدها.
^{٤٣} الشوكاني، نيل الأوطار، كتاب الوليمة والبناء على النساء وعشرتهن: باب إحسان العشرة وبيان حق الزوجين، ج٧، ص٤١٢.
^{٤٤} شرح الدردير، ج٢، ص٤٠١، ومواهب الجليل، ج٤، ص١٩٥.
^{٤٥} كما جاء عن الشوكاني وغيره من العلماء.
^{٤٦} محمد رشيد رضا، حقوق النساء في الإسلام، تعليق محمد ناصر الدين الألباني، بيروت- دمشق، المكتبة الإسلامية، ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م، ص٥١.
^{٤٧} المرجع السابق، ص٥١ وما بعدها.
^{٤٨} البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، باب الشهادات، حديث رقم ٢٤٦٧.
^{٤٩} رواه البخاري، كتاب اللباس، باب: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجوز من اللباس والبسط، ج١٢، ص٤١٨.
^{٥٠} - أبو شقة. تحرير المرأة في عصر الرسالة. مرجع سابق، ج٥، ص١٠٧.

- ٦٤ البخاري، مرجع سابق، كتاب النكاح، باب: موعظة الرجل أبنته لحال زوجها، ج ١١، ص ١٩٠.
- ٦٥ البخاري، كتاب التفسير، باب: (تبتغي مرضاة أزواجك) ج ١٠، ص ١٩٠. وصحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب: في الإيلاء واعتزال النساء، ج ٤، ص ١٩٢.
- ٤٥ انظر ما كتبه الشيخ أحمد محمد شاكر في (نظام الطلاق في الإسلام) كنتيجة لتعامله مع مشكلات المجتمع في المحاكم والافتاء وتشدد العديد من المفتين والقضاة في مسائل الطلاق التي تؤدي إلى غياب المقاصد الشرعية التي وضعت لها تلك الأحكام مما يؤدي إلى تحويلها إلى أغلال أو التفريط فيها حتى يفقد نظام الطلاق توازنه المرسوم له من قبل الشارع. نشر ١٣٥٤هـ / ١٩٣٦م بتقديم الشيخ محمد حامد الفقي.
- ٤٧ ابن ماجه. سنن ابن ماجه. تحقيق: محمد عبد الباقي. القاهرة: عيسى الحلبي، ١٩٨٣م، كتاب الطلاق، رقم الحديث: ٢٠١٥.
- ٤٨ راجع أقوال العلماء وتعريفاتهم لطلاق السنة في: مجموع فتاوى ابن تيمية، وموسوعات الفقه على المذاهب الإسلامية المختلفة.
- ٤٩ المقدسي، ابن قدامة (ت ٦٢٠هـ)، المغني. مصر: إدارة المنار، ١٣٦٧هـ، ج ٧، ص ٥٢.
- ٥٠ أبو زهرة، الأحوال الشخصية. مرجع سابق، ص ٣٠٩.
- ٥١ انظر مؤلفات الباحثة في هذا المجال باللغة الإنجليزية:

Abugideiri, S., and Z. Alwani. *What Islam says about Domestic Violence*. (Herndon: FAITH, 2008).
 Zainab Alwani, *The Qur'anic Model to Harmony in Family Relations*, In *Change from Within: Diverse perspectives on Domestic Violence in Muslim Communities*, eds. Maha B. Alkhateeb and Salma Elkadi Abugideiri, (VA: Peaceful Families Project, 2007)

- (World Health Organization 2000, 13) ٥٢
 (Morier-Genoud 2006) ٥٣
 (World Health Organization 2000) ٥٤
 (Crowell and Burgess 1996) ٥٥
 (Stark et al. 1981) ٥٦
 (Taket et al. 2003) ٥٧
 (Taket et al. 2003) ٥٨
 (Nelson 1984) ٥٩
 (Nelson 1984) ٦٠
 (Crowell and Burgess 1996) ٦١
 (Koss et al. 1994) ٦٢
 (Koss et al. 1994) ٦٣
 (Rodriguez 2001) ٦٤
 (Taket et al. 2003) ٦٥
 (Vizcarra et al. 2004) ٦٦
 (Alper et al. 2005) ٦٧
 (Naved et al. 2006) ٦٨
 (McFarlane et al. 2006) ٦٩
 (Naved and Persson 2005) ٧٠
 (Fawole et al. 2005) ٧١
 (Koenig et al. 2003) ٧٢
 (Van der Straten et al. 1998 ،Jewkes 2002 ،Watt et al. 1998) ٧٣
 (Ahmed et al. 2003 ،Ahmed and Elmardi 2005) ٧٤
 (Ahmed et al. 2003) ٧٥
 (Ahmed and Elmardi 2005) ٧٦
 (Koenig et al. 2003 ،Fawole et al. 2005 ،Eisenstat 1999) ٧٧
 (Taket et al. 2003) ٧٨
 (Ahmed and Elmardi 2005) ٧٩
 (Sadowski et al. 2004) ٨٠
 (Vizcarra et al. 2004) ٨١
 (Weir 2000) ٨٢
 (Koenig et al. 2003) ٨٣
 (Gillum et al. 2006) ٨٤
 (Weir 2000) ٨٥
 (Fawole et al. 2005) ٨٦
 (Chhabra 2005) ٨٧
 (Taket et al. 2003) ٨٨
 (Eisenstat 1999) ٨٩

- (Ahmed et al. 2003)^{٩٠}
 (Taket et al. 2003)^{٩١}
 (Koenig et al. 2003)^{٩٢}
 (Bates et al. 2004)^{٩٣}
 (Orpinas 1999 ،Heise 1998)^{٩٤}
 (Alkhateeb 1999)^{٩٥}
 (Alkhateeb 1999)^{٩٦}
 (Bates et al. 2004)^{٩٧}
 (Sadowski et al. 2004)^{٩٨}
 (Sadowski et al. 2004)^{٩٩}
 (Malcoe et al. 2004)^{١٠٠}
 (Jewkes 2002)^{١٠١}
 (Carillo 1992)^{١٠٢}
 (Ahmad and Elmardi 2005)^{١٠٣}
 (Jewkes 2002)^{١٠٤}
 (Bates et al. 2004)^{١٠٥}
 (Hoffman et al. 1994)^{١٠٦}
 (Bates et al. 2004)^{١٠٧}
 (Koenig et al. 2003)^{١٠٨}
 (Bates et al. 2004)^{١٠٩}
 (Ergin et al. 2005)^{١١٠}
 (Kyriacou et al. 1999)^{١١١}
 (Dutton and Strachan 1987)^{١١٢}
 (Kyriacou et al. 1999)^{١١٣}
 (Barling and Rosenbaum 1986)^{١١٤}
 (Bell et al. 2004)^{١١٥}
 (Koenig et al. 2003 ،Fawole et al. 2005)^{١١٦}
 (Bell et al. 2004)^{١١٧}
 (Lin et al. 1997)^{١١٨}
 Bates et al. 2004)^{١١٩}
 (Mezey and Bewley 1997)^{١٢٠}

^{١٢١} ملاحظة المحررة: هذه الإحصائيات هي من عام ١٩٩٣. تبين إحصاءات حديثة أن النساء يشكلن ٨٥٪ من ضحايا العنف الأسري. انظر:

www.endabuse.org.

^{١٢٢} يمكن الاطلاع على النص الكامل لهذا الإعلان في www.faithttrustinstitute.org

^{١٢٣} هذا مقال على استخدام جزء من آية قرآنية خارج سياقها. الآية المشار إليها هي الآية ٤ من سورة النساء والتي تشمل عملية متعددة المراحل يمكن للأزواج استخدامها للتصدي للانتهاكات الخطيرة للزواج. نستعرض هذه الآية بالتفصيل في فصل زينب العلواني في هذا الكتاب.

^{١٢٤} هذه إشارة لحديث كثير ما يسيء الرجال استخدامه للتلاعب بزواجهم لإقامة علاقات جسدية معهم. عندما يساء استخدام الحديث، يتم فصله عن التعاليم الأوسع المتعلقة بالزواج الذي غاية العلاقات الحميمة فيه هي المتعة وإشباع الرغبات المتبادل.